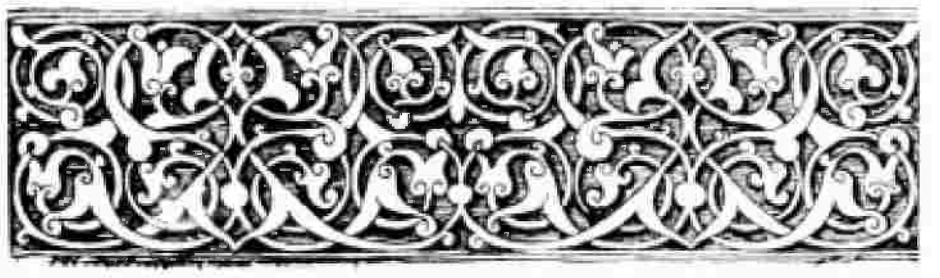

# عبد اللطيف البغدادي

ولد عبد اللطيف بن يوسف في بغداد سنة ٥٥٧هـ (١١٦٢م) ودرس الطب والفلسفة وعلوم اللغة. وتنقل بين مصر والشام والعراق. واتصل بصلاح الدين وغيره من الأمراء الأيوبيين. واجتمع بأعلام الأساتذة ولم يكن «يأخذ بقلبه ويملأ عينه» إلا النفر القليل منهم. وقد لقى الفاضل في معسكر صلاح الدين بظاهر مدينة عكاء. وزوده القاضي الفاضل بكتاب توصية إلى وكيله في مصر، وهو ابن سناء الملك. ولكن عبد اللطيف لم يلبث أن غادر مصر ورحل إلى القدس للقاء صلاح الدين، ثم يمم شطر دمشق. وقدم مصر ثانية بعد وفاة صلاح الدين واشتغل بالتدريس في الأزهر، وشاهد الغلاء الفاحش والقحط والوباء والشدة العظمى التي ألمت بوادي النيل فيما سنتي ٥٩٥ و٥٩٨هـ (١١٩٨ - ١٢٠١).

وأهم ما وصل إلينا من مؤلفات عبد اللطيف البغدادي كتاب «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر». وهو وصف رحلته إلى وادي النيل في نهاية القرن السادس الهجري. وقد ذاعت شهرة هذه الرحلة، وترجمت إلى بضع لغات أوروبية. والحق أنها تمتاز - على اختصارها - بدقة الوصف، وذكر مختلف الشئون العمرانية والاجتماعية،

[عن فييت]

رسم سفينة عربية في مخطوط من القرن السابع الهجري (١٣م)

فضلا عن الاتجـاه العلمي المنتظر من طبيب مثل البغـدادى، والذى يتجلى في كلامه على خواص مـصر العامة، وعلى ما تختص به مـن النبات والحيوان، وعلى ما فيـها من الآثار القديمة مثل الأهرام وأبى الهـول والمسلات، والمعابد في مصر العليا، ومنارة الإسكندرية وعمود السوارى.

* * *

ومن الطريف أن عبـد اللطيف سجل في رحلته رأيًا في قيـمة الآثار قد يظن بعضهم أنه غريب على المسلمين في العـصور الوسطى. أجل، فقد كتب هذا الرحالة:

«وما زالت الملوك تراعى بقـاء هذه الآثار وتمنع من العيث فيهـا والعبث بها، وإن كـانوا أعداء لأربابهـا. وكانوا يفـعلون ذلك لمصالـح: منها لتـبقى تاريخًا يتنبه به على الأحقـاب. . . ، ومنها أنها تدل على شيء من أحوال من سلف وسيـرتهم وتوافر علـومهم وصفـاء فكرهم وغيـر ذلك. وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الإطلاع عليه».

ولكنه أضـاف إلى ذلك أن الـقـوم في عـصـره كـانوا يخـربون الآثار ويكسرون الأصنام، ويدخلون إلى المقابر بحثًـا عن الكنوز وسعيًا وراء الذهب المدفون مع الموتى. والحق أن مـا كتبه البـغدادي عن المقابر الأثرية ومـا يوجد فيها لا يختلف كثيرًا عما وصلت إليـه الحفائر العلمية في العصر الحاضر، أي بعد وفاة البـغدادى بسبعمائة سنة ونـيف، بل إن الفصل الطويل الذى عرض فيه لآثار مصـر فيه من دقة الوصف وشدة الإعجاب مـا يبدو كأنه بقلم عالم من علماء الآثار المحدثين.

* * *

أما ما ذكره البغدادى عن حوادث مصر سنة ٥٩٥ وسنة ٥٩٨هـ فوصف تقشعر لهوله الأبدان، إذ اشتد القحط حتى أكل الفقراء لحم الميتة والكلاب: بل «تعدوا إلى أكل صغار بنى آدم». ولم يفت الرحالة أن يلاحظ أن فريقًا من الناس استغل هذه الشدة العظمى على حساب الطبقات الفقيرة في الشعب، فأثبت في أخبار رحلته أن «مما يقضى منه العجب أن جماعة من الذين ما زالوا مجدودين سعدوا في دنياهم هذه السنة. فمنهم من أثرى بسبب متجره في القمح. ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل إليه بالإرث. ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف».

وروى عبد اللطيف قصصًا مروعة عن الجوع والوباء وتصيد الناس وأثر هذا كله في الانصراف إلى الضلالة والشهوات. وكأنه شعر بما يحمله بعضها من طابع المبالغة فقال: «ولو أخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهذر. وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه؛ وإنما هو شيء صادفناه اتفاقًا، بل كثيرًا ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره». والمعروف أن مصر ابتليت بمثل هذا القحط عدة مرات في تاريخها الطويل. وحسبنا أن المقريزى، شيخ المؤرخين المصريين في العصور الوسطى، ألف كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة»، بحث فيه المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٥م)، فتقصى أسبابها، وأشار إلى الأساليب الممكنة لعلاجها.

والحق أن البغدادي كان دقيق الملاحظة في كل ما دونه في رحلته عن أرض مصر ومناخها ونباتها وحيوانها، ومن ذلك قوله: «إن أرض مصر رملية لا تصلح للزراعة؛ لكنه يأتيها طين أسود علك فيه دسومة كثيرة يسمى الإيليز؛ يأتيها من بلاد السودان مختلطًا بماء النيل عند مده؛ فيستقر الطين،

وينضب الماء، فيحرث ويزرع. وكل سنة يأتيها طين جديد، ولهذا يزرع جميع أراضيها ولا يراح شيء منها، كما يفعل في العراق والشام».

ولاحظ عبد اللطيف أن مصر لم يكن بها فراريج عن حضان الدجاج إلا نادرًا؛ فقد كان في البلاد كثيرًا من معامل الفروج، وكان القوم يتقنون صناعة حضانة الفراريج، ويتخذونها صناعة ومعيشة يتجر فيها ويكتسب منها، وقد أسهب الرحالة في وصف طريقة المصريين في بناء تلك المعامل واستخدام زبل البقر حتى لا يبقى فيها منفس للبخار.

ورأى البغدادي أن كثيرًا من الناس يدخلون الهرم الأكبر؛ وذكر أن الطريق المسلوك في هذا الهرم زلاقة تفضى إلى قلعة فيها ناووس من حجر؛ ولاحظ أن مدخل الهرم ليس الباب المتخذ له في أصل البناء، وإنما منقوب نقبًا صودف اتفاقًا، وأعجب ببناء الأهرام إعجابًا عظيمًا فقال: «وقد سلك في بناء الأهرام طريق عجيب من الشكل والإتقان؛ ولذلك صبرت على ممر الزمان، بل على ممرها صبر الزمان، فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلا هي غاية إمكانها، حتى أنها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم وتترجم عن سيرهم وأخبارهم، وذلك أن وضعها على مخروط يبتدئ من قاعدة مربعة وينتهى إلى نقطة، ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله في وسطه، وهو يتساند على نفسه، ويتواقع على ذاته، ويتحامل بعضه على بعض؛ فليس له جهة أخرى خارجة عنه يتساقط عليها، ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الأربع؛ فإن الريح تنكسر سورتها عند مصادمتها الزاوية، وليست كذلك عند ما تلقى السطح».

ولم يكن البغدادي سائحًا عابرًا؛ بل كان يبحث ويتفهم. فنراه، مثلا قد سمع أن في القرية المجاورة للأهرام قومًا اعتادوا ارتقاء الهرم بدون عناء، فاستدعى أحدهم وأعطاه شيئًا من النقود وطلب إليه أن يصعد إلى قمته وأن يقيس أبعاده عندها، ولكنه لم يطمئن بعد ذلك إلى قياسه، فدون رأيه في خطأ هذا القياس، وعلق عليه بقوله: «وإن ساعدت المقادير توليت قياسه بنفسي».

وأشار البغدادي إلى المغارات الموجودة على ضفة النيل الشرقية جنوبى القاهرة وقال إنها: «مقابر كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الأغوار متداخلة وفيها ما هو ذو طبقات ثلاث، وتسمى المدينة، حتى لعل الفارس يدخلها برمحه ويتخللها يومًا أجمع، ولا ينهيها، لكثرتها وسعتها وبعدها، ويظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الأهرام».

وشاهد عبد اللطيف أبا الهول وأعجب بتناسب وجهه وباستطاعة الفنان أن يحفظ نظام التناسب فى الأعضاء مع عظمها.

وصفوة القول أن البغدادى أطنب فى وصفه آثار مصر وأعمل الفكر فى بيان عظمتها، وحسبنا أنه ختم ما كتبه عنها بعبارة أودعها كل شعوره في هذا الصدد. قال: «وإذا رأى اللبيب هذه الآثار، عذر العوام في اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجثثهم عظيمة، أو أنه كان لهم عصًا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم، وذلك أن الأذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج إليه في ذلك من علم الهندسة، واجتماع الهمة، وتوفر العزيمة، ومصابرة العمل، والتمكن من الآلات، والتفرغ للأعمال، والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان، وخاصة الإنسان، ومقاديرها، ونسب بعضها من بعض، وكيفية تركيبها، وبصفاتها، ومقادير وضع بعضها من بعض».

وقد أطنب عبد اللطيف في وصف حمامات مصر وقال إنه لم يشاهد «أتقن منها وصفًا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرًا ومخبرًا. أما أولا فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين روايتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك، يصب فيه ميزابان ثجاجان حار وبارد، وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جدًا مرتفع، فإذا اختلطا فيه جرى منه إلى الحوض الكبير، وهذا الحوض نحو ربعه فوق الأرض وسائره في عمقها ينزل إليه المستحم فيستنقع فيه. وداخل الحمام مقاصير بأبواب، وفي المسلح أيضًا مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم. وهذا المسلح بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية وفي وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة وجميع ذلك نرزوق السقوف مفوف الجدران مبيضها مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف ألوانه وترخيم الداخل يكون أبدًا أحسن من ترخيم الخارج، وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الآذاج، جاماته مختلفة الألوان ضافية الأصباغ بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه؛ لأنه إذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذ دارًا لجلوسه وتناهى في ذلك لم تكن أحسن منه».

والواقع أن عبد اللطيف البغدادي أعجب بكل ما شاهد في القاهرة من غرائب الأبنية ووسائل الراحة التى قرنها أحد العلماء المحدثين بما نعرفه في الفنادق الحديثة من أرقى المخترعات وأساليب الترف[1].

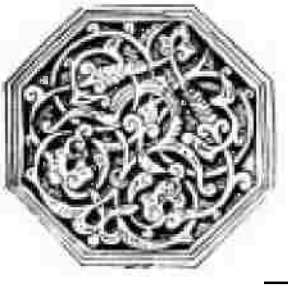

(١) أنظر Th. De la Ronciere: La decouverte de l, Afrique Moyen Age ج٢ ص ٩٦.

[عن بلوشيه]

الإسكندر الأكبر في حديقة، أشجارها من الذهب، وقباب معابدها مغطاة بالذهب ومرصعة بالأحجار الثمينة. صورة من مخطوط فارسى من تاريخ الإسكندر للشاعر نظامى، كتب في القرن الحادى عشر الهجري (١٧م)

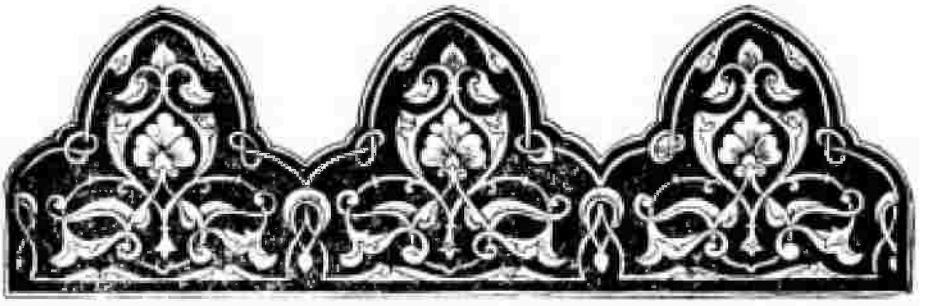

# ابن سعيد وابن فاطمة

ولد على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربى في غرناطة حول سنة ٦١٠هـ (١٢١٤م). وتلقى العلم في إشبيلية، ثم أدى فريضة الحج مع أبيه؛ ولكن أباه توفى في طريقهما للعودة إلى أرض الوطن سنة ٦٣٩هـ وأقام الابن في الإسكندرية بضع سنوات؛ ثم قام برحلات طويلة في العراق والشام والحجاز وتونس وأرمينية؛ واتصل ببعض أمراء المسلمين وعلمائهم. وتوفى في الربع الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

وقد دون ابن سعيد أخبار بعض رحلاته. وأفاد من مشاهداته فيما ألف من كتب التاريخ. وقد خلف تواليف كثيرة معظمها مخطوط إلى الآن، فلم يطبع إلا بعضها وأجزاء من البعض الآخر، ولا سيما من كتاب «المغرب في حلى المغرب» وهو كتاب كبير أتم ابن سعيد تأليفه بعد أن بدأه أبوه وجده من قبله.

وأكبر الظن أن ابن سعيد جال في غربي إفريقية، ورأى مصب نهر السنغال. أو لعله نقل ما كتبه في هذا الصدد عن الرحالة ابن فاطمة، الذى

قام برحلة بحرية جنوبى مـراكش، وغرقت السفينة التى كان فـيها عند الرأس الأبيض (جنوبى المستعـمرة الإسبانية التـى تعرف الآن باسم ساحل الذهب)، بعد أن توغل عند الأوروبيين حينذاك[1].

والظاهر أن ابن فاطمة قام بأسفار طويلة في أفـريقية. ولعله كتب أخبار هذه الرحلات؛ ولكن شيئًـا من آثاره لم يصل إلينا ما خلا الذى نقله عنه ابن سعيد، حين أشار إليه في أكثر من موضع واحد.

***

ومن طريف ما خلفـه ابن سعيد وصف للقاهرة والفـسطاط نقله المقرى في كتـابه «نفخ الطيب». وقد جـاء في هذا الوصف: «قال ابن سعـيد: ولما استـقررت بالقـاهرة تشوقـت إلى معايـنة الفسطاط، فـسار مـعى إليهـا أحد أصحاب القرية، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط حملة عظيمة، لا عهد لى بمـثلها في بلد. فركب منها حمارًا وأشار إلى أن أركب حمـارًا آخر، فأنفت من ذلك، على عادة من أخلفـته في بلاد المغرب. فأخبرنى أنه غير معيب على أعيان مصر، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركـبونها فركبت. وعندما استـويت راكبًا أشار المكارى إلى الحمـار فطار بى، وأثار من الغبـار الأسود مـا أعمى عينى ودنـس ثيابي وعاينت ما كرهته. ولقلة معرفـتى بركوب الحمار، وشدة عدوه على قانون لم أعهـده، وقلة رفق المكارى، وقعت في تلك الظلمـة المثارة من ذلك العـجاج فقلت:

---

(١) راجع Ch. De la Ronciere: La decouvetr de l,Afique au Moyen Age ج١ ص٢٣ و ٤٨ - ٤٩و ٨٠.

لقيت بمصـــر أشـــد البوار ركوب الحـــمير وكحـل الغبار

وخلفى مكارٍ يفوق الرياح لا يعرف الرفق مهـما استـطار

أناديه مهـــلا فلا يرعـــوى إلى أن سجدت سجود العثار

فدفعت إلى المكارى أجرته، وقلت له: إحـسانك أن تتركني أمشى على رجلى، ومـشيت إلى أن بلغـتهـا... ولما أقبلت على الفـسطاط أدبرت عنى المسرة، وتأملت أسوارًا مـثلمة سوداء، وآفاقًا مغـبرة، ودخلت من بابها وهو دون غلق، يفضى إلى خـراب مغمور بمبـان مشتـتة الوضع، غير مـستقيـمة الشوارع، وقد بنيت من الطـوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فـوق طبقة، وحـول أبوابها من التـراب الأسود والأزبال مـا يقـبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف. فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال، إلى أن صرت في أسواقها الضيقة، فقـاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لا تفى به إلا مشاهدته ومـقاساته، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع، فـعاينت مـن ضيق الأسواق الـتى حوله مـا ذكرت ضده في جـامع إشبيلية وجامع مـراكش؛ ثم دخلت إليه فعاينت جامعًا كبـيرًا قديم البناء غير مزخرف ولا مـحتفل في حصـره التى تدور مع بعض حياطانه وتنبـسط فيه. وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرًا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق. والبياعـون يبيعون فيه أصناف المسكرات والكعك وما سوى ذلك. والناس يـأكلون في عدة أمكنة منه غير متـحشمين لجرى العـادة عندهم بذلك. وعـدة صبيـان بأوانى ماء يطوفـون على كل من يأكل قـد جعلوا مـا يحصل لهم منه رزقًـا. وفضـلات مأكلهم مطروحـة في صحن الجـامع، وفي زواياه العنكبوت قـد عظم نسجه في السـقف والأركان والحيطان والصـبيـان يلعبون في صـحنه، وحيطانه مكتـوبة بالفحم والحـمرة بخطوط قبيحة مختلفة...

وأمـا ما يرد إلى الفـسطاط من مـتاجـر البـحر الإسكـندرانى والبحـر الحجازي فإنه فوق ما يوصف، وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البـلاد. وبالقسطاط مطابخ السكر والصابون ومـعظم ما يجرى هذا المجرى. .

والمكان المعروف بالقاهرة بين القـصرين هو من الترتيب السلطاني؛ لأن هنالك ساحة متسعة للعسكر والمتـفرجين ما بين القصرين. ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمـة القدر. . . ولكن ذلك أمد قليل، ثم تسير منه إلى أمد أضيق وتمر في مكان كدر حرج بين الدكـاكين، إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور وتسخن منه العيون، ولقد عاينت يومًا وزير الدولى وبين يديه الأمراء وهو في مـوكب جليل، وقد لقى في طريقـه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدت جميع الطرق بين الدكاكين ووقف الوزير وعظم الازدحام، وكان فـي موضع طباخين، والدخان في وجـه الوزير وعلى ثيابه. وقد كاد يهلك المشاة، وكدت أهلك في جملتهم».

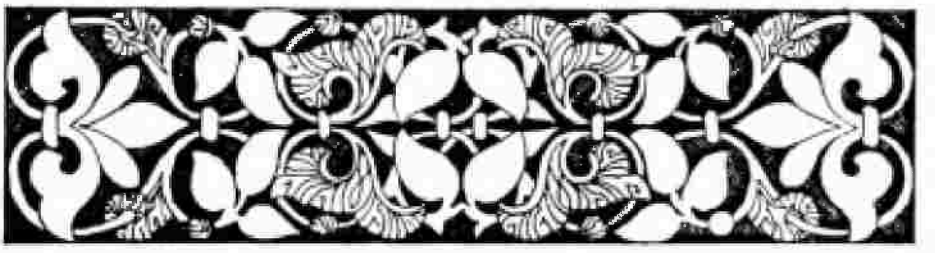

# القزوينى

ولد زكريا بن محمد القزوينى حول سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) في مدينة قزوين بالعراق العجمى. وطاف في إيران والعراق والشام. وتولى قضاء مدينتى واسط والحلة. وتوفى سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م). وقد خلف كتابين كبيرين: الأول في الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب ويسمى »عجائب المخلوقات« ولا ريب في أنه أجل ما أنتجه في هذا الميدان علماء العصور الوسطى قاطبة؛ والثانى في التاريخ وتقويم البلدان وما يتصل بهما، ويسمى «آثار البلاد وأخبار العباد».

وفي الكتاب الثاني ذكر بعض البلاد الفرنسية والألمانية والهولندية مثل ايطرخت Utrecht وأبولده Fulda ومغانجة Mainz وشلشويق Schleswig وواطربورونة Paderborn. والمعروف أن القزوينى اتصل بكثير من الرحالة، وقرأ آثارهم، وأفاد من مشاهداتهم. فنقل عن أبي الربيع سليمان الملتاني الرحالة الذي نفذ إلى وسط إفريقية، وعن إبراهيم الطرطوشي الأندلسي وأحمد بن عمر العذري اللذين توفيا حول سنة ٤٧٧هـ (١٠٨٥م) بعد أن أتيح لهما رؤية بعض المدن في فرنسا وأوروبا الوسطي.

[عن سكسيان]

السكان البيض والسكان السود

صورة في مخطوط من الترجمة الفارسية لكتاب «عجائب المخلوقات» للقزويني

ويرجع المخطوط إلى القرن التاسع أو العاشر الهجري (١٥-١٦م)

[عن ساكسيان]

شجرة واق واق والملكة عرجون

صورة في مخطوط من الترجمة الفارسية لكتاب «عجائب المخلوقات» للقزويني. ويرجع المخطوط إلى القرن التاسع أو العاشر الهجري (١٥-١٦م)

ومما نقله القزويني عن الطرطوشي حديث مدينة النساء، وقد أشار إليه الدكتور حسين فوزي في الفصل الذي عقده للكلام على جزائر النساء في كتابه «حديث السندباد القديم». نقل القزويني عن الطرطوشي أن مدينة النساء مدينة كبيرة واسعة الرقعة في جزيرة من جزائر بحر المغرب، أهلها نساء لا حكم للرجال عليهن، يركبن الخيل ويباشرن الحرب بأنفسهن ذوات بأس شديد عند اللقاء؛ ولهن مماليك يختلف كل مملوك إلى سيدته، ويقوم بالسحر ليخرج مستترا قبل انبلاج الصبح فإذا وضعت إحداهن ذكرا وِأدته في الحال».

وقد كتب المستشرق الألماني جاكوب C.jacob عدة أبحاث عما ذكره القزويني من البلاد الأوروبية وعن العلاقات التجارية بين المسلمين وسكان أوروبا الوسطى والشمالية.

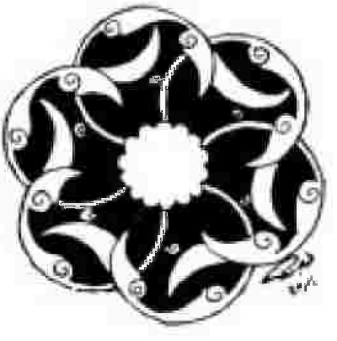

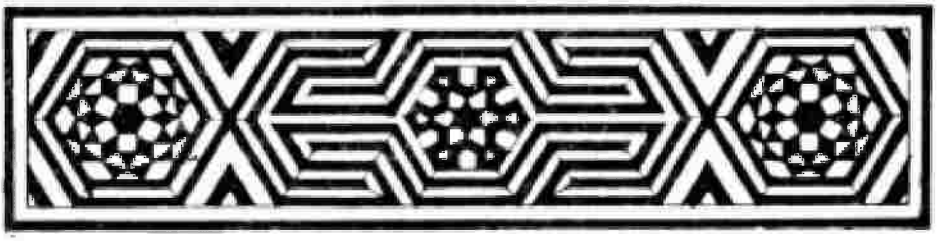

# العبدري

هو محمد بن محمد بن على العـبدري نسبة إلى جده الأعلى عبد الدار ابن قصي القـرشي. أصله من بلنسيـة. ولسنا نعرف من سـيرة حيـاته شيـئا كثيـرا. ولكن الثابت أنه كان على مقربة من الصـويرة (مغادورMogador) في المغرب الأقصى حين سافر لتأدية فريضة الحج سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م). واتخذ العبـدري في رحلته طريق إفريقـية الشمالي إلى الإسكـندرية، ومنها بالطريق البري إلى مكة، وأقـام بعد الحج فتـرة من الزمن بفلسطين، ثم قفل معـرجا على الإسكندرية. ودوَن أخبار رحلته، وأشار فيها إلى مواطنه ابن جبير. وقد وصلت إلينا بضع مخطوطات من هذه الرحلة محفـوظة في خزانات متفرقة. ونشر منهـا المستشرق الفـرنسي شاربونو Charbonneau بعض مقـتطفات في المجلة الآسيوية الفرنسية (ج٤ من الحلقة الخامسة).

وعني العبدري في رحلته ببيان المواقع الجـغرافية، وذكر المعالم الأثرية، ودراسة العادات في البلاد التي مر بها، فـضلا عن الكلام على أعلام الفقهاء المسلمين في عصره. ومما عرض له شدة ما يلقاه القادمون إلى ثغر الإسكندرية من قسوة مفـتشي المكوس. فقد كتب في هذا الصدد: «ومن الأمـر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينـهم أنهم يعترضون الحجـاج، ويجرعونهم من

بحر الإهانة الملح الأجاج. ويـأخذون على وفدهم الطرق والفجاج، يبـحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفـتيش النساء والرجال. وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهـم ما اشتـد له عجبي، وجـعل الانفصال عـنهم غاية أربى. وذلك لما وصل إليها الركب جاءت شرذمة من الحرس، لا حرس الله مهجتهم الخسيسـة، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة، فـمدوا في الحجاج أيديهم، وفتـشوا الرجال والنسـاء، وألزموهم أنواعا من المظـالم، وأذاقوهم ألوانا من الهـوان، ثم استـحلفوهم وراء ذلك كله، ومـا رأيت هذه العادة الـذميـمة، والشيمة اللئيمة في بلد من البلاد، ولا رأيت في الناس أقسى قلوبا، ولا أقل حياء ومروءة، ولا أكثر إعراضا عن الله، سبحانه، وجفاء لأهل دينه من أهل هذا البلد».

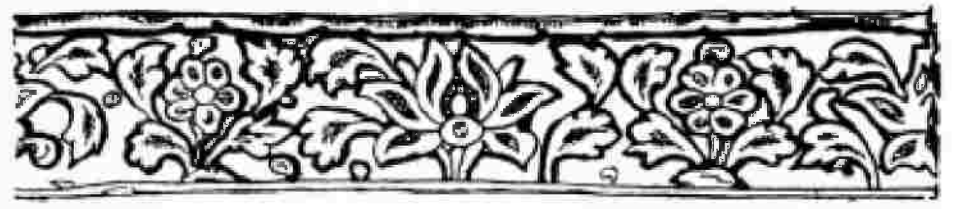

# البلوى

هو القاضي أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي غادر الأندلس سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٥م) في رحلة إلى الأقطار الحجاز لتأدية الفريضة وزيارة بعض الأقطار الإسلامية. فمر بتونس والإسكندرية والقاهرة وأقام بعض الوقت بيت المقدس. ورافق منها ركب الحاج السوري إلى الحجاز. ثم دوّن أخبار رحلته في كتاب سماه «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق» فرغ من تأليفه سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) وقد وصلت إلينا نسخ مخطوطة منه، لا تزال محفوظة في بعض الخزانات العامة.

وعني البلوي في أخبار رحلته بوصف البلاد التي مر بها، والإشارة إلى آثارها وذكر علمائها وأدبائها مع نبذ من أشعارهم ونثرهم. ولكنه نقل كثيرا عن غيره من المؤلفين والرحالة، ولا سيما عن ابن جبير؛ فقد أخذ عنه وصف الإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة. بل إن معاصره لسان الدين بن الخطيب صاحب كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» فطن لهذا العيب في تأليفه، فكتب عنه في الكتاب المذكور: «حج وقيدَّ رحلته في سفر وصف فيه البلاد ومن لقيه بفصول جلب أكثرها من كلام الاصبهاني وصفوان وغيرها».

# ابن بطوطة

هو أعظم الرحالة المسلمين قاطبة، وأكثرهم طوافا في الآفاق، وأوفرهم نشاطا واستيعابا للأخبار، وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية في البلاد التي تجول فيها. حقًّا إنه لم يكن فقيها دقيق الملاحظة سليم الحكم مثل ابن حجر؛ ولكن حديث رحلاته الطويلة غني بالأحداث، يشع الحياة، ويشهد بأن ابن بطوطة كان من المغامرين الذين لا يقر لهم قرار، ومن الذين يدفعهم حب الاستطلاع والرغبة في الاستمتاع بالحياة إلى أن يركبوا الصعب من الأمور.

ولد محمد بن بطوطة في مدينة طنجة سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤م) من أسرة عالية، أتيح لكثير من أبنائها الوصول إلى منصب والنبوغ في العلوم الشرعية. غادر وطنه سنة ٧٢٥هـ لأداء فريضة الحج؛ ولكنه ظل حول ثمانية وعشرين سنة في أسفار متصلة ورحلات متعاقبة. وألقى أخيرا عصى التسيار بما كان فيه ابن بطوطة يقصه من أحاديث أسفاره، فأمر كاتبه محمد بن جزى الكلبي أن يدون ما يمليه عليه هذا الرحالة. وتولى ابن جزي كاتب السلطان رواية الرحلة وتلخيصها وترتيبها وإضافة بعض الأشعار إليها وتحقيق بعض أجزائها مستعينا بكتب الرحلات المعروفة في ذلك العصر، ولا سيما رحلة ابن جبير.

ثم سماها «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وفرغ منها سنة ٧٥٧هـ (١٣٥٦م) وختمها بعبارة أجزل فيها الثناء على بن بطوطة، ولم ينس مولاه السلطان، فافتخر بأن ذاك الرحالة اختار الاستقرار في دياره دون غيرها.

قال ابن جزى: «انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد ابن بطوطة أكرمه الله. ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر. ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد. ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة. واتخذ حضرة فاس قرارا ومستوطنا بعد طول جولاته، إلا لما تحقق أن مولانا أيده الله أعظم ملوكها شأنا، وأتمهم بما ينتمي إلى طلب العلم حماية. فيجب على مثلي أن يحمد الله تعالى؛ لأن وفقه في أول حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة، التي هذا الشيخ بعد رحلة خمسة وعشرين عاما».

* * *

وقد طبعت رحلة ابن بطوطة في باريس مع ترجمة فرنسية في منتصف القرن الماضي على يد المستشرقين ديفريمري Defremery وسانجنتي Sanguinetti وطبعت في القاهرة طبعتين عربيتين ونشر الأستاذ جب Gibb ملخصا لها بالإنجليزية في سلسة Broadway Travellers سنة ١٩٢٩ قدم له بتصدير طيب تحدث فيه عن الرحالة وعصره.

ولعل بعض الاضطراب في أخبار ابن بطوطة يرجع إلى أنه لم يدون رحلته بنفسه، وان ابن جزيّ عدل في بعض أخبارها وغير فيها بالحذف أو الإضافة، بعد أن راجع طائفة من كتب الأسفار الأخرى، حتى جاءت بعض الأخبار بعيدة عن الدقة، ولا سيما أحاديث ابن بطوطة عن الصين. فاتهمه بعض النقاد بأنه لم يصل إلى تلك البلاد كما زعم في رحلته. ولكنا لا نميل

إلى تأييد هذا الاتهام كل التأييد؛ لأن معظم تلك الأحـاديث يدعمها ما نعرفه عن رحلة ماركو بولو، الذي زار الصين أيضا، ومكث فيهـا حول سبعة عشر عاما، ثم أملى أخبار رحلته على كاتب آخر، وتوفى قبل أن يقوم ابن بطوطة برحلته الأولى بسنة واحدة.

وقد أشار الدكتور حسين فوزي في كتابه «حديث السندباد القديم» (ص ١٨٨- ١١٩) إلى قـصة نزول ابن بطوطة ببـلاد طوالسي في المحيط الـهادي ولاحظ أن وصفه تلك البلاد - ولا سيـما نسائها - ذو صلة بأسطورة جزيرة النساء وأسطورة الوقواق. وقال إن تلك القـصة من الحكايات التي دعت كثيرا إلى التشكـك من سفر ابن بطوطة إلـى بلاد الصين وأنه ليس ببعـيد أن يكون حديثه عن «أودجا» ملكة تلك البلاد «نوعا من السطو البري على قصة علقت بذهن ابن بطوطة من مطالعـاته عن البلاد التي في شـرق الصين ونسبـها إلى نفسه».

وفي رأينا أن هذه القصة وغيرها من القـصص الغريبة فد تحملنا على أن نشك غي صحـة بعض ما نسبـه ابن بطوطة إلى نفسـه؛ ولكنها لا تكفي لأن نشك في صحة سفره إلى تلك البلاد. والحق أن ما كتبه عن الصين يبدو قائما على أسس من المشاهدات الشخصية ويجب ألا ننسى في هذه المناسبة أن مثل هذه الرحالة إلى الصين كانت أمـرا ميسورا لابن بطوطة بوصفه سـفير سلطان دلهي. وإذا كان حـديثه عنها بعـيدا عن الإسهاب والإطـالة فلعل السبب في ذلك أنه لم يكن يسـتطيع أن يتذكر السـماء الصـينية أو أن ابن جزى مـحرر الرحلة أمعن في اختصاره لسبب من الأسباب.

ومهـما يكن من الأمر فـإننا نشعر حين نقـرأ رحلة ابن بطوطة أن ثمت أجزاء يغلب عليـها طابع المبالغـة، ونرجح أن الرحالة خصب الخيـال وأنه قد

يكون مصداقا للمثل المشهور في بعض اللغات الأوروبية ("A beau mentir qui vient de join" ومعناه أن القادمين من البلاد البعيدة لهم أنت يختلفوا ما شاؤا، إذ لا رقيب عليهم. ولكن ليس فذ هذا ما ينقص من شأن ابن بطوطة ورحلته. وحسبنا أن نتبعها مرحلة مرحلة، لنقف عند بعض أجزائها الطريفة، مما يصف ظاهرة اجتماعية غريبة أو يثبت وجود نظم نظن أنها من مستحدثات العصر الحاضر.

***

غادرا ابن بطوطة بلاد المغرب الأقصى إلى الأراضي الحجازية فمر ببلاد الجزائر وتونس وطرابلس. والظاهر أن هذا الطريق البري لم يكن أمينا كل الأمن؛ فقد علم الرحالة من صديق له بضرورة الإسراع في السير خوف غارة العرب في الطريق؛ وحدث بعد ذلك أن أرادت طوائف الأعراب الإيقاع بالركب قبل الوصول إلى الحدود المصرية. وحرص ابن بطوطجة على أن يحدثنا عن بعض شؤونه الخاصة في هذه المرحلة الخاصة في هذه المرحلة فأملى ما يأتي: «ووقع بيني وبين صهري مشاجرة أوجبت فراق بنته، وتزوجت بنتا لبعض الطلبة فاس وبنيت بها بقصر الزعافية، وأولمت وليمة حبست لها الركب يوما وأطعمتهم».

ثم وصل إلى الإسكندرية ووصفها وصفا موجزا ولا سيما المنار وعمود السواري؛ وتحدث بشيء من الإسهاب عمن زارهم من علمائها، ومنهم الإمام الزاهد برهان الدين الأعرج الذي توسم فيه حب الرحلة والأسفار، فأوصاه إذا ذهب إلى الهند أو الصين أن يزور إخوانا سماهم له. وشجع ذلك ابن بطوطة على التفكير في التوجه إلى تلك البلاد القاصية. على أننا لا نشك في أنه لم يكن منذ البداية يقصد الحج فحسب، بل كان يزمع التجول في العالم

الإسلامي، كما يظهر من قضائه عدة شهور في الطريق إلى الإسكندرية ومن تعريجه على مدن في الدلتا بعيدة عن الطريق العادي إلى القاهرة.

ومن طريف ما ذكره ابن بطوطه عن مدينة دمياط أنها كانت مسورة، وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج منها إلا بإذن الوالي؛ فمن كان في الناس معتبرا أعطاه رجال الإدارة الإذن على ورق مختوم بطابع الوالي، أما طالب الخروج من عامة الناس فكانوا يطبعون على ذراعه بخاتم الوالي، فيسمح له حراس باب المدينة بمبارحتها عند رؤية هذا الختم.

ثم وصف ابن بطوطة القاهرة والفسطاط (مصر) فذكر المساجد والمدارس والمستشفيات والقرافة والنيل والأهرام، وقال عن هذه إنها بنيت لتكون مستودعا للعلوم ولجثث الملوك. وتحدث عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون وعن بعض كبار الأمراء والعلماء في دولته، ووصف الاحتفال بسفر المحمل. وقال إن بنيل مصر من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق، وأن «الروضة» كانت حينئذ مكان النزهة والتفرج وبها البساتين الكثيرة الحسنة، وأن أهل مصر ذو طرب وسرور ولهو، وأنه شاهد بها مرة فرجة - بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده - فزين كل أهل سوق سوقهم وبقوا على ذلك أياما.

وسافر الرحالة من القاهرة إلى عيذاب؛ ولكنه لم يستطع أن يعبر البحر منها؛ لأنه وجد أميرها الحدر بي زعيم البجاة قد ثار على مولاه السلطان الناصر المملوكي، وأقبل على مطاردة جنوده المماليك، وأتلف المراكب فتعذر السفر في البحر. وعاد ابن بطوطة إلى الفسطاط، ثم رحل عنها إلى فلسطين ولبنان وسورية؛ على أن يرافق إلى الحجاز ركب الحاج الشامي. ووصف

الطريق الصحـراوي بين مصر وفلسطين وما كـان فيه من محطات ولا سـيما «قطيا» التي كانت تجبي المكوس. قال:

«ثم وصلت إلى الصالحـية، ومنها دخلنا الرمال ونزلهـا منازلها، وبكل منزل منها فندق وهم يسـمونه الخان، ينزله المسافـرون بدوابهم، وبخارج كل خان ساقـية للسبيل وحـانوت يشترى منه المسـافر ما يحتاج إليـه ودابته ومن منازلها «قطيـا» المشهورة، وبهـا تؤخذ الزكاة من التـجار وتفتـيش أمتعـتهم، ويبحث عما لديهم أشـد البحث، وفيها الدواوين والعمـال... ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذين. ولا يجوز عليهـا أحد من الشام إلا ببراءة (إذن أو جواز سـفر) من مصـر ولا إلى مصر إلا ببـراءة من الشام، احتـياطا على أموال الناس، وتوقيا من الجواسيس العراقيين. وطريقها في ضمان العرب وقد وكلوا بحفظـه، فإذا كان الليل مـسحوا على الرمل لا يبـقي به أثر، ثم يأتي الأمير صباحا فينظر إلى الرمل، فإن وجد به أثرا طالب العرب بإحضار مؤثره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم، فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء».

***

وتنقل ابن بطوطة بين مـدن فلسطين والشام تنقـلا يبدو غيـر منتظم في أخـبار رحلتـه. ومهـما يكن مـن الأمر، فـإنه وصف غزة وبيت المقـدس، وأعجب بقبـة الصخرة وتحدث عن فضلاء القـدس، وانتقل إلى وصف صور وطرابلس الشام وحلب، وسرد بعض القصص التي تتصل بالنزاع بين السلطان الناصر محـمد بن قلاوون ودولة إيلخانـات المغول بالعراق وما تبـعه من فرار الأمير قراسنقر نائب حلب إلى إيلخان المغول.

وأسهب ابن بطوطة في الكلام على دمـشق، فوصف مسجـدها الجامع وصفا دقيقا، وتحدث عن حلقات التدريس فيه. ومن أطراف ما كتبه عنها ذكر

ما بها من أوقاف لمختلف الشؤون الاجتماعية «منها أوقاف تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن؛ ومنها أوقاف لفكاك الأسارى؛ ومنها أوقاف لأبناء السبيل، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم؛ ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها، لأن أزفة دمشق لكل واحد منها رصبفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك؛ ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير» وسرد ابن بطوطة قصة طريفة في هذا الصدد. قال: «مررت يوما ببعض أزفة دمشق، فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت، واجتمع الناس، فقال له بعضهم «اجمع شفقها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني» فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لا بد له أن يضر به على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير جل ذلك. فكان هذا الوقف جبرا للقلوب».

وطبيعي أن يعني ابن بطوطة بالكلام على ما يلقاه مواطنوه المغاربة من كرم الوفادة في دمشق فأشار إلى أن أهلها يحسنون الظن بالمغاربة ويعهدون إليهم في شتى الأعمال، فلا يحتاج غريب إلى بذل وجهه في السؤال «وكل من انقطع بحهة من جهات دمشق لا بد أن يأتي له وجه من المعاش» من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة، أو ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه، أوقراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجري له النفقة والكسوة. فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفوظا عما يزري بالمروءة. ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر، من حراسة بستان أو إمامة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم

إلى التعليم ويروح ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك».

وأشار ابن بطوطة إلى أن من فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر احد منهم في ليالي رمضان وحده البتة، فمن كان غنيا فإنه يدعو أصحابه والفقراء. أما الفقراء فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو فى مسجد ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا.

وكان ابن بطوطة يعني بالنواحي الاقتصادية في مشاهداته فيذكر أجل ما تختص به المدن التي يزورها من منتجات زراعيبة أو صناعية ولا تفوته الإشارة إلى الطريف منها. ومن ذلك قوله في بعلبك «ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد، وهم يسمون الصحائف بالدسوت، وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها أخرى إلى أن يبلغوا العشر، يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة. وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرا واحدة في جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد». . . فليس لنا أن نعجب إذن حين نرى مصانع الغرب في العصر الحاضر تطبق هذه الفكرة في إنتاج بعض أنواع الآنية ومنافض السجاير.

***

أدى ابن بطوطة بعد ذلك فريضة الحج، ووصف مناسكها، وتحدث عن الحجازيين وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية، وأثنى على أهل مكة ومدح ما شاهده فيها من الكرم وحسن الجوار للغرباء، ولاحظ أن نساء مكة «فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف، وهن يكثرون التطيب، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيبا. وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زي، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقي أثر الطيب بعد ذهابها عبقا»!!

ثم غادر الحجاز سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) مع الركب العراقي، ولكنه تركه عند النجف، وعرج على واسط والبصرة. وعجب لهذه التي إلى أهلها كانت انتهت رياسة النحو، فلم يبق بها من يعرف شيئا من هذا العلم، حتى الخطيب يلحن في الخطبة لحنا كثيرا جليا.

ولم يشأ ابن بطوطة أن يقفل إلى العراق من الطريق عينها التي دخل منها. وقال في ذلك إن من عادته في سفره ألا يعود على طريق سلكها ما أمكنه ذلك. فزار بعض المدن في غربي إيران مثل تستر وأصبهان وشيراز وكازرون. وأظهر في وصفها ذوقا فنيا وإعجابا بجمال الطبيعة، فضلا عن عنايته المعهودة بالناس وأعيادهم وأحوالهم الاقتصادية والعلمية والاجتماعية؛ ومن ذلك قوله في وصف مدينة اشتركان: «وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين. ولها مسجد بديع يشقه النهر».

ورجع ابن بطوطة إلى العراق فنزل بالكوفة ثم انتقل إلى بغداد وأتيح له أن يرى موكب السلطان أبي سعيد، فوصفه على نحو ما وصف القلقشندي مواكب الفاطميين والأيوبيين والمماليك في مصر.

***

وقام ابن بطوطة برحلات من بغداد إلى تبريز والموصل ونصيبين وسنجار وماردين؛ ثم رافق ركب الحاج العراقي إلى الحجاز فأدى الفريضة ثانية؛ وأقام يدرس بمكة سنة كاملة. ثم حج مرة ثالثة؛ وركب البحر إلى اليمن مارا بسواكن وأشار إلى أن البحر في هذه المنطقة لا يسافر فيه ليلا لكثرة أحجاره، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ويرسون وينزلون إلى البر. فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب.

وزار الرحالة زبيد، وقال إنها أملح بلاد اليمن وأجملها، وليس في تلك البلاد بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها. وأعجب بجمال نسائها وبقبولهن تزوج الغرباء. وغادرها إلى صنعاء وذكر أن أرضها مبلطة فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاتها. وطبيعي أن يلاحظ ابن بطوطة - وهو الناشئ في إقليم البحر الأبيض المتوسط حيث يهطل المطر شتاء - أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ.

وقابل الرحالة سلطان اليمن في صنعاء ووصف بلاطه وترتيب الطعام فيه ثم أضاف: «وعلى مثل هذا الترتيب ملك الهند في طعامه؛ فلا أعلم أسلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن، أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند».

وسافر ابن بطوطة إلى عدن وأشار في وصفها إلى ثروة التجار فيها ثم عبر البحر إلى زيلغ بالصومال الإنجليزي الحالي، ووصفها بأنها أقذر مدينة في المعمور وأوحشها وأكثرها نتنا «حتى أنه اختار المبيت بالبحر على شدة هوله ولم يبت بها لقذرها» وسافر بعدها إلى مقدشو عاصمة تلك البلاد (وهي تقع على ساحل المحيط الهندي). ونزل بأمر السلطان في دار الطلبة، وهي معدة لضيافة أهل العلم. وغادرها إلى جزيرة منبسي ثم إلى كلوا على ساحل أفريقية الشرقي جنوبي خط الاستواء، وأهلها من الزنوج. وقال الرحالة عن المسلمين منهم إنهم «أهل جهاد، لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج».

وعاد ابن بطوطة إلى بلاد العرب طائفا حول سواحلها الجنوبية والشرقية ومارا بمدينة ظفار. وعجب لأنه رأى الدواب والغنم فيها بسمك السردين، وتحدث عن تجارها مع الهند وعن سلطانها. ثم مر بهرمز وسيراف والبحرين؛ ووصف الغواصين على الجوهر، وعبر الخليج الفارسي إلى القطيف في إقليم

اليمـامة، وانحدر منهـا إلى مكة فأدى الفـريضة مرة أخـرى وشاهد السلطان الناصر محمد يحج ومعه طائفة من الأمراء والمماليك.

وأراد ابن بطوطة أن يبحر إلى اليمن والهند ولكنه لم يجد في ثغر جدة مركبا أو رفيقا إلى الجنوب فرجع إلى مصر. وسافر منها إلى الشام على طريق بليس. ووصل إلى اللاذقيـة. وركب منها البحر إلى إلى العـلايا في الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، وكانت حينئذ مشتى الروم السلاجقة.

وطاف الرحالة في كثـير من بلاد الأناضول؛ فوصف أحوالها السـياسية قـبل أن تصـبح دولة واحـدة على يد العـثـمانيين. كـمـا تحـدث عن آثارها وصناعاتها وعادات أهلها، ولا سيما نظام جماعات الإخوان أو الفتيان. وهي جـمـاعـات تضم الشـبان العـزباء أبناء الطائفـة الواحـدة أو القرية الواحـدة، فيقدمون عليهم رئيسا لهم ويتخذون مقرا لجمعيتهم ويتعاونون على البر وإكرام الضيف الغـريب ويشتركون في الطعـام وفي الغناء وفي الرقص وما إلى ذلك من اللهو البرئ. ونظامهم يتصل بنظام الفـتوة الإسلام. وقد ذكر ابن بطوطة أن فتيان مدينة قونية «لهم في الفتوة سند يتصل إلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام. ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة».

وأبحـر الرحالة إلى شـبه جـزيرة القرم من ثغـر صنوب شمـالي آسـيا الصغرى، ونزل بمرسـي «الكرش». ثم انتقل إلى تغر كافا، وأكـثر سكانه من أهل جنوة، جعلوه من أهم مراكز التجـارة وأكبر أسواق الرقيق. ورحل عنها إلى مدينة القرم. وكانت تابعة للسلطان مـحمد أوزبك، خان المغول المعروفين بالقبيلة الذهبية. وغادر القرم إلى أزاق وأشار إلى كثرة الخيل بتلك البلاد وإلى أن ثمنها زهيد فينقل التجار ألوفا منها الهند ويغنمون الأرباح الطائلة.

وانتقل إلى مدينة الماجر بالقوقاز حيث لقي يهوديا كلمه بالعربية وظهر أنه من الأندلس، وأنه قدم إلى القوقاز بطريق البر الأوروبي، وأنم رحلته استغرقت حول أربعة أشهر، وعلم ابن بطوطة صحة ذلك من بعض التجار الآخرين ممن لهم المعرفة في هذا الشأن. وأعجب الرحالة بتعظيم النساء في تلك البلاد حتى قال «وهن أعلى شأنا من الرجال» ووصف بعض مواكبهن ولاحظ أنهن لا يحتجبن «وربما كان مع المرأة منهن زوجها، فيظنه من يراه بعض خدمها».

وتحدث ابن بطوطة عن السلطان محمد أوزبك وزار معسكره على أربعة أيام من مدينة الماجر في موضع يقال له «بش دغ». وكان هذا المعسكر مدينة عظيمة متنقلة «فيها المساجد والأسواق ودخان المطبخ صاعد في الهواء. وهم يطبخون في حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم» فإذا بلغوا المكان الذي يريدون المقام فيه، انزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض. وقد أفاض ابن بطوطة في الكلام على مواكب خواتينه أو نسائه الأربع.

وذكر الرحالة أن هذا السلطان أوفد معه دليلا لتوصيله إلى مدينة بلغار على الشاطئ الأيسر لنهر اتل (الفولجا). وقد مر بنا ذكرها في الكلام على ابن فضلان. وأراد ابن بطوطة أن يجاوز هذه المدينة إلى الشمال لزيارة أرض الظلمة (سيبريا وشمالي روسيا) وبينها وبين مدينة بلغار أربعون يوما؛ ولكنه لم يفعل، فقال في رحلته: «ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤونة فيه وقلة الجدوى. والسفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغار، تجرها كلاب كبار، فإن تلك المفازة فيها الجليد، فلا تثبت قدماالآدمي ولا حافر الدابة فيها. والكلاب لها الأظفار فتثبت أقدامها في الجليد. ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها، موقرة بطعامه وشرابه

وحطبه، فـإنها لا شجر فـيها ولا حجـر ولا مدر. والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي سار فيـها مرارا كثيـرة. وتنتهي قيمتـه إلى ألف دينار ونحوها. وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب. ويكون هو المقدم وتتبعه سائر الكلاب بالعربات، فـإذا وقف وقفت... فإذا كملت للمسـافرين الفلاة أربعون مـرحلة نزلوا عند الظلمـة وترك كل واحد منهم مـا جاء به من المـتاع هنالك، وعادوا إلى منزلهم المعـتاد. فإذا كان من الغد عـادوا لتفقد مـتاعهم, فيجدون بـإزالة من السمور والسنجاب والقاقم. فإن أرضى صـاحب المتاع ما وجـده إزاء من متـاعه أخـذه، وإن لم يرضه تركـه فيـزيدونه. وربما رفعـوا متاعهم، أعنى أهل الظلمة، وتركوا أمـتاع التجار، وهكذا بيعهم وشراؤهم. ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم... والقاقم هو أحسن أنواع الفراء، وتساوي الفروة منه ببـلاد الهند ألف دينار.. وهي شديدة البياض من جلد حيـوان صغـير في طول الشـبر وذنبه طـويل، يتركونه في الـفروة على حاله. والسمور دون ذلك. تساوي الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها».

وطبيعي أن ما يـذكره ابن بطوطة في هذا العبارة مصدره مـا سمعه من التجار عن تلك البلاد الشماليـة. ولا ريب في أن قصة تبادل التجارة من دون رؤية أهل تلك البـلاد تبدو خيـالية إلى حـد كبيـر، ومع ذلك فقـد قرأنا أن الأوروبيين عرفـوا مثل هذا الأسلوب التجـاري مع الهنود الحمـر في أمريكا، كما عرفه القرطاجنيون مع بعض الأمم في العصور القديمة وعرفه الأحباش مع بعض القبائل الإفريقية في القرن السادس الميلادي[1].

***

(١) راجع Ch. De la Ronciere:La Decouverte de L, Afrique au Moyen Age ج١ ص ٩٥ - ٩٦.

عاد ابن بطوطة إلى بـلاط أوزبك خان في القوقـاز وأتيح له أن يغادره إلى القسطنطينيـة في رفقة الخاتون بيلون زوجة هذا السلطان، وكـانت تقصد زيارة أبيها مـلك الروم «لتضع حملها عنده». وكـانت هذه الرحلة بطريق البر في جزيرة البلقان. ولقى الرحالة من رعاية قيصر القسطنطينية ما عتاد أن يلقاه من سلاطين المسلمين. وذكر أنهم فـتشوه قبل الدخول على الإمـبراطور «لئلا يكون معـه سكين» وأنه في البلاط ترجمـان يهودي يتكلم العـربية واصله من بلاد الشـام. وقد خلع الملك على ابن بطوطة وأمـر له بفرس. والغـريب أن الذي يلبس خلعـة الملك ويركب فرسا من هداياه يطاف بـه في أسواق المدينة بالأبواق والطبول، ليراه الناس. وعلق ابن بطوطة على ذلك بقوله: «وأكثر ما يفعل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك، لئلا يؤذوا».

وشاهد الرحـالة آثار القسطنطينيـة. ثم رجع إلى السلطان أوزبك بدون الخاتون بيلون؛ فقد رغبت في المقام مع أبيها. وقد شك بعض النقاد في رحلة ابن بطوطة إلى القـسطنطينية، ولا سـيمـا لأنه لم يوضح الطريق الذي سلكه للوصول إليها؛ ولأنه أشار إلى لقائه قيصر الروم السابق بعد أن انقطع للعبادة ونزل عن العرش لابنه، والحقيقة أن هذا القـيصر توفى في السنة السابقة للعام الذي ينم عنه كلام ابن بطوطة. ولكن المستشـرق الإنجليزي الأستاذ جبGibb كتب في مقدمته للمقتطفات التي نشرها من رحلة ابن بطوطة باللغة الإنجليزية أن غموض الطريق الذي سار فيه الرحالة إلى القـسطنطينية يمكن تفسيره بغرابة تلك البلاد في وجه سائح لا يعرف لغتها ولا تـربطه ببيئتها أي صلة؛ أما لقاء الإمبراطور السابق فيمكن تفسـيره بخطأ وقع فيه ابن بطوطة في حساب السنة التي زار فيها عاصمة الدولة البيزنطية.

***

وسافر ابن بطوطة بعد ذلك إلى خوارزم وبخاري. ومن طريف ما شاهده في المدينة الأخيرة أن شواهد القبور الموجودة في مدافن علمائها كانت تتضمن أسماء الكتب التي صنفوها في حياتهم. وقد أعجب الرحالة بهذا الأسلوب في تخليد ذكراهم؛ فنقل بعض نصوص تلك الشواهد؛ ولكنه أضاعها بعد ذلك. وأشار إلى ذلك بقوله: «وزرت ببخاري قبر الغمام العالم أبي عبد الله البخاري مصنف الجامع الصحيح شيخ المسلمين رضي الله عنه. وعليه مكتوب: هذا قبر محمد بن إسماعيل البخاري وقد صنف من الكتب كذا وكذا. وكذلك على قبور علماء بخاري أسماؤهم وأسماء تصانيفهم. وكتب قيدت من ذلك كثيرا؛ وضاع مني في جملة ما ضاع لي لما سلبني كفار الهند في البحر».

ثم واصل ابن بطوطة أسفاره إلى سمر قند وترمذ وبلخ وهراة وطوس ونيسابور وبسطام وغزنة وكابل. ثم دخل بلاد الهندسنة ٧٣٤هـ (١٣٣٣م) واتصل بسلطانها محمد بن تغلق. وتولى منصب القضاء في دهلي. وأقام فيها حول ثماني سنين. وترك في رحلته وصفا حسنا لكثير من مدنها وآثارها ونباتها وحيوانها. كما تحدث عن أمراء المسلمين فيها، ومن كان يفد عليهم من أعلام الغرباء. وأشار إلى كثير من عادات الهنود وأحوالهم الاجتماعية، فذكر مثلا كيف يتشرف نساء الهندوس بإحراق أنفسهن بعد موت أزواجهن. وقال إن التي لا تفعل ذلك تقيم عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها. كما ذكر الذين يغرقون أنفسهم في نهر الكنج تقربا إلى معبودهم.

وطبيعي أنه أسهب في الكلام على مدينة دهلي وعمائرها وسكانها ومن حكمها من الأمراء المسلمين، ولا سيما السلطان محمد شاه بن تغلق؛ فقد أفاض في وصف بلاطه ومراسيم احتفالاته وفيض كرمه وعطاياه واستقباله

للملوك والأمراء؛ ولكنه وصف إلى جنب ذلك قسوته وشغفه بإراقة الدماء. والحق أن ابن بطوطة أتيح له أن يكتب في وصف هذا السلطان والمتصلين به ما لم يظفر التاريخ الإسلامي بمثله عن بلاط أي أمير آخر. ولم يكن ابن بطوطة مرضيا عنه دائما في بلاط ابن تغلق فقد كان هذا السلطان يقصيه أحيانا ويقر به أحيانا أخرى.

***

وكان أن غضب عليه السلطان مرة، فاعتزل الخدمة ووهب ماله للفقراء والمساكين، ولازم أحد الزهاد، ولكن السلطان أراد أن يرسل وفدا من قبله إلى ملك الصين يحمل هدية سنية. واختار ابن بطوطة لرياسة هذا الوفد إلى قندها وركب منها البحر إلى ثغر قاليقوط التي كانت تقصدها سفن أهل الصين وجاوة وسيلان واليمن وإيران وغيرها.

ورأى الرحالة في هذا الثغر ثلاثة عشر مركبا للصين. ووصف في هذه المناسبة أنواع المراكب الصينية وأساليب بنائها. وأشار إلى ضخامة تلك السفن وقال إن للمركب أربعة ظهور. ويكون فيه البيوت (أي مجموعة الغرف) والمصاري (أي مجموعة الغرف وما يتبعها) والغرف للتجار. والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس (أي الرحاض) وعليها المفتاح، يسدها صاحبها ويحمل معه الجواري والنساء. وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض البلاد» وأضاف ابن بطوطة أن البحارة كانوا سيكنون مع أسراتهم في السفن، وأنهم كانوا يزرعون الخضر والبقول في أحواض من خشب.

ثم شاء القدر أن هبت على مرسى قاليقوط عاصفة شديدة، قذفت إلى عرض البحر بالمركب الذي كانت فيه الهدية التي يحملها الوفد إلى ملك

الجبال في الطريق إلى بلاد التبت

صورة في مخطوط من كتاب «جامع التواريخ» لرشيد الدين

مؤرخ بين عامي ٧٠٧ و ٧١٤هـ (١٣٠٦ - ١٣١٤م)

الصين ولكن ابن بطوطة نفسه كان وقتئذ بالشاطئ. وكان متاعه وغلمانه وجواريه بسفينة أخرى. فلما رأى أهل هذه السفينة ما حل بالسفينة الكبرى التي كانت تحمل الهدية أقلعوا؛ وبقى ابن بطوطه منفردا على الساحل لا يملك إلا عشرة دنانير وبساطا كان يفترشه. فلم يشأ أن يعود إلى سلطان دهلي؛ بل تنتقل بين الساحلين الغربي والشرقي في شبه جزيرة الهند. واشتغل حينا بالغزو والجهاد في خدمة جمال الدين سلطان مدينة هنور.

ثم سافر إلى جزائر ديبة المهل (جزائر الملديف الحالية). وتولى القضاء فيها وأعجب بصلاح أهلها وتقواهم. وكان أكثر نساء هذه الجزائر لا يلبسن سوى «فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل» وسائر أجسادهن مكشوفة. وكن يمضين كذلك في الأسواق وغيرها. فجهد ابن بطوطة لما ولى القضاء بها أن يقطع تلك العادة ويأمرهن باللباس فلم يوفق. ومما عجب له الرحالة «أنهن يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار، على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها، وعلى مستأجرهن نفقتهن، ولا يرين ذلك عيبا. ويفعله أكثر بناتهم، فتجد في دار الإنسان الغني منهن العشر والعشرين. وكل ما تكسره من الأواني يحسب عليها قيمته».

وكان حكم هذه الجزائر قد آل إلى السلطانة خديجة بنت جلال الدين البنجالي حين لم يبق من بيت الملك غيرها وأختان لها. وكان ابن بطوطة صارما في منصب القضاء؛ فأبعد عنه قلوب بعض الوزراء والعيان في الجزائر. ولم يشأ البقاء فيها بعد ذلك؛ فغادرها إلى جزيرة سيلان، ثم إلى ساحل الهند الشرقي فإقليم بنجالة فشبه جزيرة الملايو فسومطرة.

***

ووصل ابن بطوطة إلى الصين. وفي رحلته بيانات طيبة عن أحوال الصينيين من المسلمين والوثنين، وعن إتقانهم الصناعات والفنون، ولا سيما التصوير وصناعة الصيني. كما أن فيها أقدم إشارة إلى استخدام ورق النقد في المعاملات. فقد ذكر الرحالة أن عادة التجار في الصين أن يسبكوا ما يكون عندهم من الذهب والفضة قطعا، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره، وأن «أهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم. وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما ذكرنا». وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد. كل قطعة منها بقدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان. وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان، حملها إلى دار كدار السكة عندنا؛ فأخذ عوضها جددا ودفع تلك. ولا يعطي على أجرة ولا سواها».

ومما ذكره ابن بطوطة في معرض الحديث عن مهارة أهل الصين في التصوير أن عادتهم أن يصوروا كل من يمر بهم من الغرباء «وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته إلى البلاد، وبحث عنه، فحيثما وجد في تلك الصورة أخذ».

ولابن بطوطة إشارات طريفة إلى عادة رجال الإدارة والبحرية في تقييد أسماء البحارة ورجال السفن قبل الإذن لها بالسفر فإذا عادت «صعدوا إليها وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس، فإذا فقدو أحد ممن قيدوه طالبوا صاحب المركب به فإما أن يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث له، وإلا أخذ فيه فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفصيلا بجميع ما فيه من سلع قليها وكثيرها. ثم ينزل من فيه، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم. فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد جميع ما فيه مالا للمخزن».

وأشار ابن بطوطة إلى ما كان للمسلمين من امتيازات في الصين، فقاتل «ولابد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام، تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه، وقاض يقضي بينهم» وذكر أن كل مدينة من مدن الصين كان فيها حي للمسلمين يسكنونه ويتخذون فيه المساجد، وأن الحكومة كانت تعني بمراقبة التجار المسلمين وضمان أموالهم التي يدخلون البلاد بها، بحيث لا يمكنهم إنفاقها في الفساد. وكان أولو الأمر في الصين حريصين أشد الحرص على ألا يقال إن المسلمين يخسرون أموالهم في الصين.

وأعجب ابن بطوطة ببيوت أهل الصين فقال: «وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما هي بلدة سجلماسة ببلادنا. وبهذا عظمت بلادهم»، كما أعجب ببعض منشآت الشؤون الاجتماعية، ولا سيما بمعبد كبير شاهده في مدينة «جيني كلان» كان فيه بيوت لسكن الضريرين وذوي العاهات وفيه مستشفى كبير. وكان الأيتام والأرامل والشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب يحصلون من هذا المعهد على ما يلزمهم من النفقة والكسوة. وطبيعي أن المعهد كانت له أوقاف غنية.

ويبدو من رحلة ابن بطوطة أن المسافرين المسلمين القادمين إلى الصين كانوا يلقون من بني دينهم في تلك البلاد أعظم الترحيب والإكرام. من ذلك أن ابن بطوطة، حين وصل إلى مدينة قنجنفو، خرج إليه القاضي وشيخ الإسلام والتجار ومعهم الأعلام والطبول والأبواق والأنفار وأهل الطرب، وأتوه بالخيل، فركب ومشوا بين يديه ولم يركب معه غير القاضي والشيخ. وكان المسلمون في البلاد الصينية التي ينزلها ابن بطوطة يقيمون له الولائم ويقدمون له الهدايا ويصحبونه إلى رحلات في القوارب ومعهم المغنون والموسيقيون، يغنون بالصينية والعربية والفارسية.

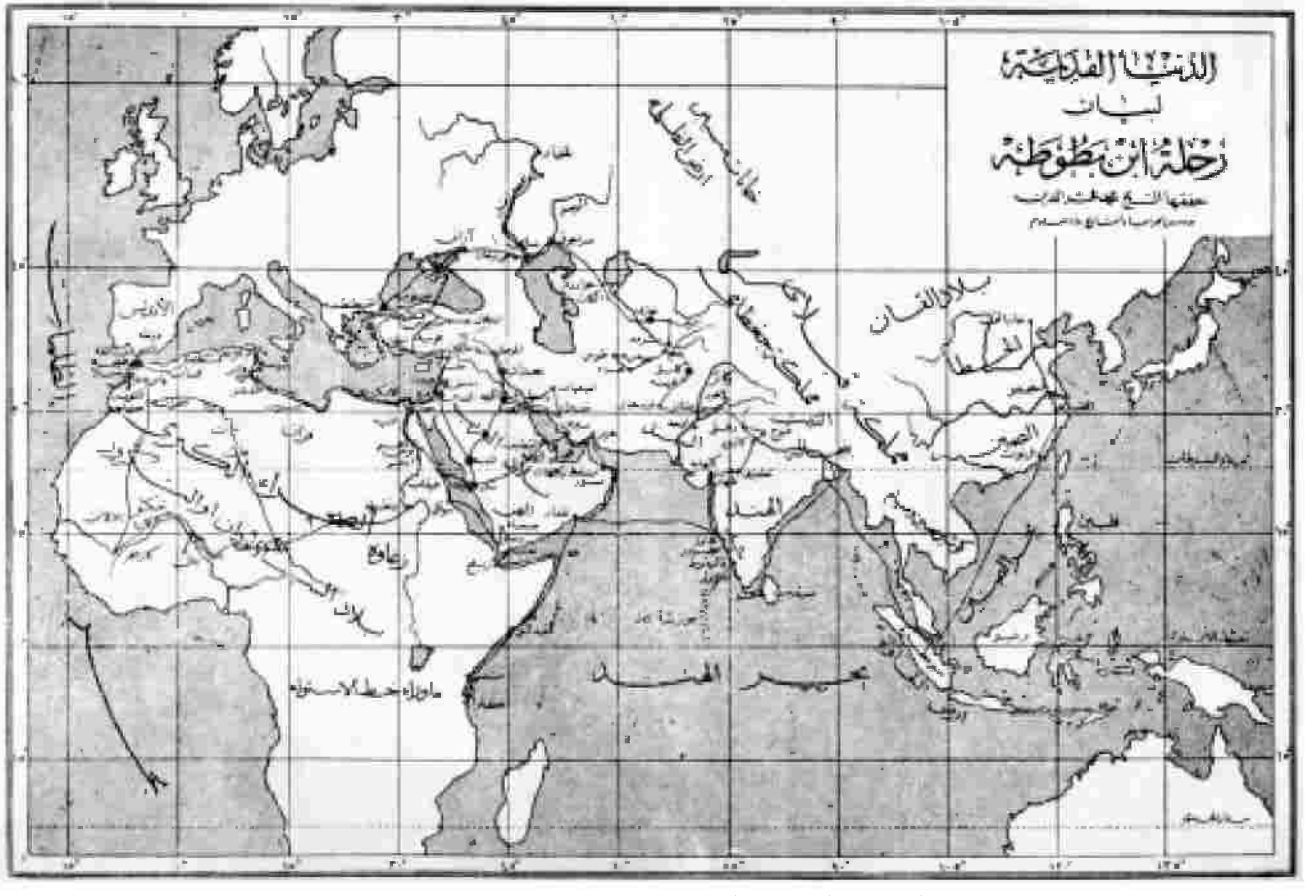


نقلا عن كتاب «مهذب رحلة ابن بطوطة»

ومن أعـلام المسلمين الذين لـقيـهم ابـن بطوطة في بلاد الصين أسـرة مصرية الأصل نزل بدارها في مدينة «خنسـا». قال الرحالة: «ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصري. وكان أحد التجار الكبار؛ استحسن هذه المدينة فاستوطنها. وعرفت بالنسبة إليـه، وأورث عقبه بها الجاه والحرمة. وهم على ما كان عليـه أبوهم من الإيثار على الفقراء والإعانة للمـحتاجين. ولهم زاوية تعرف بالعثمانيـة حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة. وبني عثـمان المسجد الجامع بهذه المدينة، ووقف عليـه وعلى الزاوية أوقافا عظيمة. وعـدد المسلمين بهذه المدينة، وكانت إقامتنا عندهم خمسـة عشر يوما، فكنا كل يوم وليلة في دعوة جديدة، ولا يزالون يحتفلون في أطعمـتهم، ويركبون معنا كل يوم للنزهة في أقطار المدينة».

ومن غريب ما ذكره ابن بطوطة عن نظم التـأمين الاجتماعى فى الصين أن العـامل أو الصـانع كان يعـفى من العـمل وتنفق عليـه الحكومـة إذا بلغ الخمسين، وأن من بلغ ستين سنة عدّوه كالصبى فلم تجر عليه الأحكام».

***

وعاد ابن بطوطة من الصين معرجا على سـومطرة، حيث حظى بضيافة سلطانهـا الملك الظاهر وأتيح له أن يشـهد أعـراس ابنه وولى عهـده مع بنت أخيه؛ ولاحظ أن الزفاف بدأ بخروج العروس «من داخل القـصر على قدميها بادية الوجه، ومعها نحو أربـعين من الخواتين يرفعن أذيالها من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه، وكلهن باديات الوجوه، ينظر إليـهن كل من حضر من رفيع أو وضيع. وليـست تلك أهل الطرب رجالا ونساء يلعبـون ويغنون؛ ثم جاء الزوج على فـيل مزين، عـلى ظهره سـرير، وفوقـه قـبة والتـاج على رأس العروس المذكور، عن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والأمراء قد لبسوا

البيـاض وركبـوا الخيل المزينة وعلى رؤوسـهم الشواشي المرصـعة وهم أتراب العروس، وليس فيهم ذو لحية. ونثرت الدنانير على الناس عند دخوله. وقعد السلطان بمنظرة له يـشاهد ذلك. ونزل ابنه فـقـبل رجله، وصـعد المنبـر إلى العـروس فقـامت إليـه وقبلت يده. وجلس إلى جـانبـها والخـواتين يروحن عليها..».

ولم يشأ ابن بطوطة أن يعود إلى دلهي ثانية وأستأنف أسفاره إلى الخليج الفارسي والعـراق. ولقى في بغداد بعض المغـربة. فعرف منهـم الهزيمة التي حلت بأبي الحسن سلطان المغرب في قتال الفونس الحـادي عشر ملك قشتالة. (وكان ذلك على مقربة من طريف سنة ٧٤١هـ أي ١٣٤٠م) كما علم بسقوط الجزيرة الخضراء في يد الأسبان المسيحيين سنة ٧٤٣هـ (١٣٤٢م).

***

ثم وصل إلى دمشق. وذكر في الكـلام عليها حديثا يؤيد مـا أشرنا إليه من تزوج الرحالة المسلمين في كثيـر من البلاد التي يمرون بها. قال: «وكانت مدة غـيبي عنهـا عشـرين سنة كاملة. وكنت تركت بهـا زوجة لي حـاملا. وتعرفت وأنا ببلاد الهند أنها ولدت ولدا ذكرا. فـبعثت حينئذ إلى جده للأم، وكان من أهل مـكناسة المغرب أربعين ديـنارا ذهبا هنديا. فحـين وصولي إلى دمشق في هذه الكرة لم يكن لي هم إلا السؤال عن ولدي. فـدخلت المسجد فـوقف لي نور الدين السخـاوي إمام المالكـية وكـبيـرهم فسلمت عليـه فلم يعرفني، فعرفـته بنفسي وسألته عن الولد فقال: مـات منذ اثنتي عشرة سنة، وأخبرني أن فقيها من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية؛ فسرت إليه لأسأله عن والدي وأهلي، فوجدته شيخا كبيـرا فسلمت عليه وانتسبت له، فأخبرني أن والدي توفى منذ خمس عشرة سنة، وان الوالدة بقيد الحياة».

وكان ابن بطوطة بالشام حسن انتشر الطاعون في مدنها سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) فأشار إلى كثرة ضحاياه وواصل السفر في مصر، ووجد أن الوباء كان قد انتشر في بعض مدنها ثم خفت حدّته. واتجه الرحالة إلى عيذاب حيث أبحر إلى الحجاز لتأدية الفريضة مرة أخرى. ثم قصد إلى فلسطين ومنها إلى القاهرة.

وأكبر الظن أنه لم يكن قد عقد العزم على الرجوع إلى وطنه بعد؛ ولكنه سمع في مصر عن عظمة السلطان أبى عنان ونجاحه في النهضة ببلاد المغرب وإحسانه على الخاص والعام، فأراد أن يقصد بابه، ويمم شطر وطنه الأول.

***

أبحر ابن بطوطة من مصر إلى تونس في صفر سنة ٧٥٠ (مايو سنة ١٣٤٩). وسافر من تونس على سفينة مع القطلانيين مرت بجزيرة سردانية. ولم تكن رحلته إلى أرض الوطن خالية من الأخطار؛ فقد كاد أن يقع في أيدي القرصان المسيحيين؛ ولكنه وصل أخيرًا إلى مدينة فاس ونزل في بلاط السلطان أبى عنان. ثم سافر إلى طنجة وزار قبر والدته؛ وعزج على مدينة سبته، فمرض بها ثلاثة أشهر. وكأنه أراد ألا يلقى عصا التسيار قبل أن يزور الدولتين الإسلاميتين اللتين لم تطأهما قدماه بعدُ وهما الأندلس ومملكة المسلمين في السودان الغربى.

***

قام ابن بطوطة إذن برحلة ثانية، زار فيها الأندلس. وأشار إلى موت الفونس الحادي عشر ملك قشتالة أثناء حصاره جبل طارق وعمله على

الاستيلاء على ما بقي بأيدي المسلمين من بلاد الأندلس. وأتيح للرحالة أن يشاهد الحصون وأعمال الدفاع التي أقامها في جبل طارق السلطان أبو عنان وأبوه السلطان أبو الحسن. ثم زار مالقة وأعجب بالخزف النفيس ذي البريق المعدني، وكان يصنع بها ويصدر إلى أقاصي البلاد. ودخل بعد ذلك غرناطة وأعجب بجمال موقعها وما بها من قصور وبساتين وكروم.

* * *

وعاد ابن بطوطة إلى مدينة فاس عاقدا العزم على السفر في رحلته ثالثة ليزور بلاد المسلمين في السودان الغربي؛ وقيل إن السلطان أوفده في مهمة إلى تلك البلاد. ومهما يكن من المر فقد استأذن في الرحيل، واتجه إلى سجلماسة وانضم فيها إلى جماعة من التجار[1]. وبدأت القافلة رحلتها عبر الصحراء الكبرى في أول سنة ٧٥٣ (فبراير ١٣٥٢)، ووصلت بعد خمسة وعشرين يوما إلى مدينة تغازي حيث يستخرج الملح. ولاحظ ابن بطوطة أن السودان يتعاملون بالملح كما يتعامل غيرهم بالذهب والفضة. ووصلت القافلة إلى (تاسرهلا)، ومنها يبعث «التكشيف» إلى مدينة إيوالاتن. وقد شرح ابن بطوطة أن التكشيف دليل من قبيلة مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى إيوالاتن بكتب من المسافرين إلى أصحابهم بها، ليكتروا لهم الدور ويخرجوا للقائهم بالماء مسيرة أربع ليال. ومن لم يكن له صاحب في إيوالاتن كتب إلى أحد المشهورين بالفضل من تجارها وإذا حدث أن تاه هذا الدليل أو أهلك، فلا يعلم أهل إيوالاتن بالقافلة؛ وربما هلك من فيها أو الكثير منهم. وذكر ابن بطوطة أن دليل قافلته كان «أعور العين الواحدة مريض الثانية» وكان مع

(١) كانت العلاقات التجارية متصلة بين بلاد المغرب وأقاليم السودان.
راجع Ch de la Ronquete de l'Afrique au moyen Age ج١ص٨٧-٨٨.

ذلك أعرف الناس بالطريق. وقد تحدث الرحالة عن شدة الحر في الصحراء وذكر أن القافلة كانت ترحل بعد صلاة العصر وتسير الليل كله وتقف عند الصباح.

وصلت القافلة إلى إيوالاتن بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة. وذكر ابن بطوطة أنها أول أقاليم مملكة السودان وأقصاها شمالا وأن أهلها كانوا يحتقرون البيض، وأن ثيابهم كانت من المنسوجات المصرية، وأن معظمهم من قبيلة مسوفة. «وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب. فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله. ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه. وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود. وأما هؤلاء فهم مسلمون محفظون عليالصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن. وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات. ومن أراد التزوج منهن تزوج. لكنهن لا يسافرن مع الزوج. ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها. والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها، فلا ينكر ذلك».

وروى ابن بطوطة قصتين في هذا الشأن. قال في الأولى: «دخلت يومًا على القاضي بإيوالاتن بعد إذنه في الدخول، فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن، فلما رأيتها ارتبت وأزدت الرجوع فضحكت منى ولم يدركها خجل. وقال لي القاضي: «لم ترجع؟ إنها صاحبتي» فعجبت من شأنهما، فإنه من الفقهاء الحجاج، وأخبرت أنه استأذن من السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته لا أدري أهي هذه أم لا، فلم يأذن له».

وقال ابن بطوطة في الحكاية الثانية: دخلت يومًا على أبي محمد بندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعدًا على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد وهما يتحدثان فقلت له: ما هذه المرأة؟ فقال: هي زوجتي، فقلت: وما الرجل الذي معها منها؟ فقال: هو صاحبها. فقلت له: أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع؟ فقال لي: مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم؛ فعجبت من رعونته وانصرفت عنه فلم أعد إليه بعدها واستدعاني مرات فلم أجبه».

غادر ابن بطوطة إيوالاتن ميممًا شطر «مالى» الواقعة جنوبيها على مسيرة أربعة وعشرين يومًا. واكترى هو وثلاثة من أصحابه دليلا من قبيلة مسوفة. ومر بطريق فيها أشجار ضخمة قد تستظل القافلة بظل الشجرة الواحدة منها. وبعض هذه الأشجار يحفظ فيه ماء المطر ويشرب الناس منه. وقد ذكر الأستاذ جب Gibb في تعليقه على هذا الوصف أن هذا النوع من الشجر أدخل من أفريقية الغربية إلى إقليم كردفان في القرن الثامن عشر وكانوا يفرغون جذوعه لتخزن فيها المياه فتقوم مقام الآبار.

وأشار الرحالة إلى أن المسافر في تلك البلاد لا يحمل زادًا وإنما يحمل قطع الملح وحلى الزجاج أو الخرز وبعض السلع العطرية، فإذا وصل إلى إحدى القرى جاء نساء السودان بالذرة واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفوفي - وهو كحب الخردل يصنع من الكسكسو- والعصيدة ودقيق اللوبيا، فيشترى منهن ما أحب من ذلك.

ووصل ابن بطوطة إلى مدينة كارسخو على نهر النيجر وظنه نهر النيل وقال إنه ينحدر من كارسخو على بلدة كابره فبلدة زاغة ثم إلى تنبكتو.

ولاحظ أن أهل زاغة قدماء في الإسلام متمسكون بأهداب الدين ومقبلون على طلب العلم. والواقع أن هذه المنطقة، وهي على فرع النيجر الشمالي الغربي مقر مملكة تكرور التي كانت أول معقل للإسلام بالسودان في بداءة القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

وكان ابن بطوطة يعتقد أن «النيل» (أي النيجر) ينحدر من تمبكتو إلى بلدة كوكوثم على بلدة مولى فبلدة يوفي ثم ينحدر إلى بلاد النوبة ودنقلة. ولعل وجود بحر الغزال كان سببًا في هذا الخطأ. ولكن معظم الرحالة والجغرافيين كانوا يعتقدون أن نهر النيجر يصب غربًا وكانوا يخلطون بينه وبين نهر السنغال، إلى أن أتيح للطبيب البريطاني منجو بارك Mungo park أن يقوم برحلته لكشف حوض النيجر سنة ١٧٩٥، فيتقدم في إقليم غمبيا ويعبر نهر السنغال ثم يتبع مجرى النيجر إلى مسافة قريبة من تمبكتو.

ووصل ابن بطوطة أخيرًا إلى مدينة مالي محاضرة مملكة السودان المسماة بهذا الاسم. وأشار إلى أن من عادات أولى الأمر فيها أن يمنعوا الناس دخولها إلا بالإذن. وكان الرحالة قد كتب إلى زعماء الجالية العربية فيها فحصلوا على ذلك الإذن وإكتروا له دارًا وكان بين أولئك الزعماء تاجر مصري اسمه شمس الدين بن النقويس المصري. والظاهر أن هذه المدينة كان فيها جالية مصرية بارزة، وقد أشار ابن بطوطة إلى مرض أصيب به فيها وكان علاجه على يد أحد أفراد تلك الجالية.

وقد ذكر الرحالة بخل منسا سليمان سلطان مالي في عبارة ظريفة تشهد بما اعتاده من كرم الأمراء والسلاطين، قال «ولما انصرفت بعث إلى الضيافة، فوجهت إلى دار القاضي. وبعث القاضي بها رجاله إلى دار ابن الفقيه. فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا حافي القدمين، فدخل عليّ وقال «قم قد

جاءك قماش السلطان وهديته. فقمت وظننت أنها الخلع والأموال، فإذا هي ثلاثة أقراس من الخبز وقطعة لحم بقري مقلو بالغرتى، وقرعة فيها لبن رائب؛ فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشيء الحقير».

وطبيعي أن السودان في تلك المملكة كانوا يتكلمون لغة غير العربية. ولعل المسلمين المقيمين فيها من العرب والبربر كانوا يتعلمون تلك اللغة الوطنية. وقد أشار ابن بطوطة إلى وجود مترجم في بلاط الملك كان وساطة الكلام بينه وبين من لا يعرفون لغة البلاد. وكان لهذا المترجم شأن كبير بارز في البلاط فكأن كالأمين الأول للملك.

وتحدث ابن بطوطة عن كثير من أحوال السكان في تلك البلاد وعن عاداتهم البدائية وأعجب بقلة الظلم في بلادهم، وشمول الأمن بحيث لا يخاف المسافر فيها ولا القيم من سارق ولا غاصب؛ كما ذكر أنهم لا يتعرضون لمال من يموت في بلادهم من البيض، يتركونه لثقة من جنس المتوفي حتى يأخذه مستحقه. وأشار إلى عنايتهم بحفظ القرآن وإقبالهم على صلاة الجماعة وحرصهم على لبس الثياب البيض النظيفة يوم الجمعة، حتى إنه إذا لم يكن لأحدهم إلا قميص بال غسلة ونظفه وشهد به الجمعة. ولكن ضايق ابن بطوطة أن أرى الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات كما أغمه أن النساء كن يدخلن على السلطان عرايا غير مستترات وأن بنات السلطان نفسه كن عرايا.

ومن طريف ما ذكره ابن بطوطة عن السودان أن منسا موسى أحد ملوك مالي كان قد غضب على قاض من البيض فنفاه إلى بلاد الزنوج الذين يأكلون بني آدم. وأقام هذا القاضي عندهم أربع سنين ثم رجع إلى مملكة مالي. ولم

يأكله الزنوج لبياضه؛ فقد كانوا يعتقدون أن أكل الأبيض مضر لأنه لم ينضج بعد! . أما الأسود فهو وحده ذو اللحم الناضج.

وغادر الرحلة مدينة مالي ورأى في النيجر فرس البحر لأول مرة في حياته. ثم وصل إلى مدينة تمبكتو وشاهد بها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية وكان قد جاءها ليقتضي مالاً له كان السلطان منسا موسى اقترضه منه لما كان بمصر متوجهًا إلى الحج. وشاهد كذلك قبر الشاعر المهندس أبي إسحق الساحلي الغرناطي. وكان هذا الشاعر قد لقي منسا موسى في مكة أثناء تأدية فريضة الحج؛ ثم صحبه بعد ذلك إلى بلاد السودان، وشيّد له قصره الملكي والمسجد الجامع في تمبكتو(١).

واصل ابن بطوطة السفر شرقً في الصحراء حتى وصل إلى مدينة تكدّا. وذكر أن أهلها لا عمل لهم إلا التجارة «يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون ما بها من حسان الثياب وسواها». وكان سلطانها من البربر؛ ولعله كان زعيم قبيلة المسوفة. وذكر ابن بطوطة أن أهل تكدا كانوا في رفاهية وسعة حال وكانوا يتفاخرون بكثرة العبيد والخادمات. وكان معدن النحاس يوجد بكثرة على مقربة من بلدهم فكانوا يأتون به، ويسبكونه في دورهم، وينصعون منه قضبانًا في طول شبر ونصف بعضها دقاق وبعضها غلاظ، ويتخذون هذه القضبان صرفًا لهم فيشترون برقاقها اللحم والحطب ويشرون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح.

***

(١) راجع Ch. De la Ronciere: La Decouverte de L' Afrique au Moyen Age ج١ ص١١٦ - ١٦٣.

وكانت هذه المدينة آخر مرحلة في رحلة ابن بطوطة، فقد وصل إليه فيها رسول من قبل السلطان أبي عنان، يطلب إليه الرجوع إلى فاس. فغادر تكدا في الحادي عشر من شهر شعبان سنة ٧٥٤هـ (١١ سبتمبر سنة ١٣٥٣) ووصل إلى فاس بعد سفر ثلاثة شهور.

والحق أن رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان ليست أقل شأنًا من رحلته الكبرى؛ فقد كان أول رحالة الآفاق المجهولة في الصحراء الكبرى؛ وكتب عن مشاهداته فيها[١].

***

وقد وفق ابن بطوطة كل التوفيق فيما أملاه عن رحلته، فخلف لنا صورًا صادقة، كلها حياة للعصر الذي عاش فيه، ووصف لنا الأشخاص والجماعات وصفًا يجعلنا نشعر كأنهم بين أيدينا وزار كل الدول الإسلامية في عصره، وقطع في أسفاره مسافة قدرها بعض العلماء بخمسة وسبعين ألف ميل، وهي مسافة لا يظن أن رحالة غيره قطعها قبل استخدام البحار في وسائل السفر. لذلك كله خصصناه بالإطالة في هذا العرض.

***

(١) المرجع السابق ج١ ص٨٩-٩٤.

# عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري

هو زين الدين عبد الباسط، ولد في ملطية في رجب سنة ٨٤٤ (ديسمبر سنة ١٤٤٠). وكان أبوه خليل بن شاهين الظاهري من أمراء المماليك وأعلام رجال الإدارة في عصره بل كان من كبار المؤلفين كما يشهد بذلك كتابه «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك». وهو عرض للوظائف السياسية والإدارية في إمبراطورية المماليك في القرنين السابع والثامن بعد الهجرة (١٣ - ١٤م).

ولكن عبد الباسط لم يتبع أباه في سلك الإدارة بل درس الفقه والأدب والطب واشتغل بالتجارة والتأليف. ومن آثاره كتاب «الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم»: ويبحث في تاريخ الدول الإسلامية ولا سيما مصر وسورية، على نمط كتاب السلوك للمقريزى. ولم يصلنا منه إلا أجزاء في مخطوطتين بمكتبة الفاتيكان. وتشمل إحداهما الكلام على ما بين سنتي ٨٦٥ و٨٤٧هـ. وفيها إشارات إلى رحلة طويلة قام بها عبد الباسط في بلاد المغرب للتجارة ودراسة الطب على أعلام الأطباء في تلك البلاد.

وقد أتيح له أن يقضى فى هذه الرحلة بضع سنوات فى زيارة الممالك والدويلات الإفريقية الواقعة في حكم الحفصيين وبنى عبد الواد وبنى نصر. وكان سفره من الإسكندرية في شوال سنة ٨٦٦هـ (يوليه سنة ١٤٦٢) على

إحدى سفن البندقية ومر بجزيرة رودس ثم نزل في تونس بعد رحلة بحرية دامت ثلاثة وثلاثين يومًا.

وبعد أن أقام عدة أشهر في عاصمة بنى حفص غادرها على إحدى سفن البندقية إلى طرابلس ومنها إلى قابس ثم القيروان. ورجع بعد ذلك إلى تونس ثم رحل عنها إلى قسطنطينية وبجايا والجزائر ومازونا وتلمسان وواهران وأبحر على باخرة جنوية إلى الأندلس في ربيع الثاني سنة ٨٧٠ (ديسمبر سنة ١٤٦٥) وزار مالقة وغرناطة في شهرين ونصف. ثم رجع إلى وهران وغادرها بعد عدة أشهر إلى تونس على باخرة جنوية. ثم رجع إلى مصر مارًا بليبيا؛ فوصل الإسكندرية في شوال سنة ٨٧١ (مارس ١٤٦٧).

***

ومما يؤسف له أن عبد الباسط لم يدون أخبار رحلته في كتاب مستقل ولكنه كتبها في مواضع متفرقة في كتابه «الروض الباسم». وقد قام المستشرق ليفي ديلافيدا Levi della vida بنشر المقتطفات الخاصة بالأندلس مع ترجمة وتعليقات في مجلة «الأندلس» سنة ١٩٣٣ وأعلن عزمه على نشر الجزء الخاص بطرابلس. بينما قام الأستاذ برنشويج Brunschwig بنشر الأجزاء الخاصة بتونس والجزائر ومراكش ومعها ترجمة فرنسية وتعليقات. والحق أن هذه المقتطفات وثائق عظيمة الشأن في تاريخ العرب في القرن التاسع الهجري (١٥م) فهي تميط اللثام عن جوانب شتى من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في ذلك العصر.

وكان عبد الباسط يكسب نفقات أسفاره من التجارة في العبيد وفي البضائع المصرية والمغربية واستطاع بذلك أن يختلط بالتجار في البلاد التي مرّ بها. ولكنه كان يجتمع - فضلا عن ذلك - بالفقهاء والعلماء ولا سيما رجال

الطب. وكان ينظم الشعر فأمكنه الوصول إلى مجالس العظماء. وكان يكافأ على قصائده في المديح بإعفائه من الضرائب على تجارته أحيانًا، وبمنحه العطايا أحيانًا أخرى. من ذلك أنه نظم قصيدة في مدح صاحب تلمسان «فكتب له ظهيرًا بمسامحته في كل ما يتصرف فيه من نوع المتجر» وأنه في سنة ٨٦٧ أنشد للمتوكل على الله صاحب تونس يتبين في مدح بني حفص، هما:

ألا يا آل حفص يا ملوكا ويا دررًا بهم نظمت سلوك

ألا فقتم ملوك الأرض طرًا فما من بعدكم أحد مليك

فأعجب بهما المتوكل وكتب لعبد الباسط «ظهيرًا بإعفائه من المغارم واللوازم فيما يتجر فيه».

وعرف عبد الباسط بالتسامح الديني واحترام عقائد الآخرين كما يتبين من حديثه عن طبيب إسرائيلى لقيه في تلمسان سنة ٨٦٩هـ قال: «ولازمت في الطب الرئيس الفاضل الماهر... موسى بن صموئيل بن سهودا الإسرائيلى المالقى الأندلسى اليهودى المتطبب... هداه الله تعالى للإسلام. لم أسمع بذمى ولا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم وفي علم الوفق والميقات وبعض العلوم القديمة مع التعبد الزائد في دينه على ما يزعمه ويتعقده. وهو في الأصل من يهود الأندلس وولد بمالقة قبل العشرين وثمانمائة وأخذ عن أبيه وغيره، وأجازنى وبلغنى عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في الطب بتلمسان وهو مقرب ومختص بصاحبها».

وقد وصف عبد الباسط نزوله وغيره من التجار المسلمين في ساحل البحر بالقرب من بجاية، بعد تركهم السفينة الجنوية التى قدموا عليها، وأشار

إلى أن طائفة من البربر في تلك النواحى فروا عند ما رأوه وسائر التجار وظنوا أن السفينة لبعض القرصان من الفرنج «غيروا هيئتهم حيلة لأخذ المسلمين» فصار التجار ينادونهم من البعد باللغة العربية ويقرون بالشهادتين، والبربر «لا يلتفتون إليهم لكونهم لا يعلمون اللغة العربية بل البربرية فلا يفرقون بين لغة الفرنج والعرب».

وفي هذه القصة إشارة إلى الغارات الكثيرة التى كان المسيحيون يشنونها على ثغور إفريقية لأسر المسلمين. وكان من المألوف في تلك البلاد أن يأتى الأفرنج بأسراهم من المسلمين إلى إفريقية فيفديهم أهل البلاد.

ومن طريف ما رواه عبد الباسط قصة على عبث قطاع الطرق واللصوص بالتجار في ذلك الحين. وخلاصتها أن جمعًا من التجار باعوا تجارة لهم في فاس وأرادوا الرجوع إلى أوطانهم ولكنهم كانوا يحسبون لقطاع الطرق ألف حساب »فاتفق أربعة منهم على الرجوع بحيلة احتالوها، مشت على العرب وقطاع الطريق، بأن شروا حميرًا وجعلوا عليها أخراجًا بما كان معهم من المال النقد، وعمدوا إلى عبى عتيقة فجعلوها أغطية على الأخراج، وأنهم أخذوا الطحال من الغنم فجففوه ودقوه وحملوه معهم مع شيء من الغراء وخرجوا وكانوا إذا قربوا من طائفة من العريان أو نجع أذابوا الغراء الذى معهم وجعلوا يلطخون مواضع من أبدانهم على رقابهم ووجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى نصف الساق ثم يذرون على ذلك مما معهم من الطحال المدقوق المجفف ويمشون بأسكانهم، يوهمون بأنهم مجاذيم من أهل البلاء، وأنهم يجولون بحميرهم عليها زادهم وأثاثهم فكانوا إذا اجتازوا على العرب ورأوهم على تلك الحالة هربوا فارين منهم وأبعدوا عنهم يخشون العدوى حتى كانوا يجعلون لهم من أنواع المآكل على ممرهم بالطريق ويشيرون

إليهم من البعد بأن يأخذون ذلك ويدعون لهم من غير أن يقربوا منهم ولا يصلوا إليهم. . . ولم يزالوا على ذلك حتى وصلوا إلى بلادهم ولم يروا إلا الخير والسلامة، وكان يكاد أن لا يطير الطير من شرور من اجتازوا بهم من العربان وعد ذلك من غريب الحيل والنوادر».

وروى عبد الباسط قصة أخرى يتبين منها أن التجار الداخلين مدينة واهران كان يؤخذ منهم عند باب المدينة عشر قيمة ما معهم من البضائع، وأن بعضهم كان يلجأ إلى تهريب بضائعه يتوزيعها على من يدخل المدينة من أهلها، لأنهم لا يفتشون ولا يطلب إليهم أن يدفعوا أى ضريبة على ما يحملون. وكان التجار يستردون بضائعهم في المدينة بعد نجاح حيلتهم في التخلص من دفع الضريبة المطلوبة.

وأشار عبد الباسط إلى أن الأشراف من بنى هاشم كانوا يلقون في بلاد العرب تعظيمًا كبيرًا، مما أدى إلى أن بعض المحتالين كان يفد من مصر والعراق إلى بلاد المغرب منتسبًا إلى أسرة النبي وجامعًا حوله نفرًا من الأنصار والمحتالين ولم يكن من السهل أن يكشف أمرهم.

ومما لاحظه هذا الرحالة أن المسجونين في تونس كانوا في حالة يرثى لها وقد حدث في جمادى الثانية سنة ٨٦٧هـ أن كثرت استغاثتهم »حتى أعيوا السامعين، فسأل السلطان صاحب تونس عن حالهم فبلغه بأنهم يشكون الجوع فأمر لهم بطعام يفرق فيهم وحصل لهم بذلك نوع رفق في الجملة».

وصفوة القول أن عبد الباسط روى في كتابه أخباراً كثيرة عن رحلته في بلاد المغرب والأندلس. وكلها تشهد بدقة ملاحظته وتشير إلى نظم تلك البلاد في عصره وإلى أحوالها الاجتماعية والاقتصادية.

# الخاتمة

عرضنا في الصفحات السابقة أخبار الرحالة المسلمين، وظهر لنا أن المجهولين منهم أكثر ممن حفظ التاريخ أسماءهم. فمعظمهم لم يعن بتدوين أخبار أسفاره. واستطاع نفر قليل منهم أن ينتفع بها في الكتابة في التاريخ وعلم تقويم البلدان. ووفق أفراد معدودون لتدوين أحاديث الرحلات التى قاموا بها ولسرد مشاهداتهم العجيبة في البلاد التى تجولوا فيها.

***

وأما شأن هذه الرحلات في تطور العلم والمعرفة فما من شك في أن المسلمين ساهموا في تعريف بالشرق الأقصى وإفريقية فضلا عن آفاق دولتهم المتراخية.

فالرومان كانوا يتخيلون وجود الصين؛ ولكن الرحالة المسلمين عرفوها وكتبوا عنها منذ بداءة العصور الوسطى أخبارًا أيتها رحلة ماركوبولو البندقى في القرن الثالث عشر الميلادى. وكان الرومان لا يعرفون من قارة إفريقية إلا سواحلها الشمالية، أما المسلمون فقد عبروا الصحراء وعرفوا مجاهل هذه القارة التى ظل الأوروبيون حتى القرن الثامن عشر يقفون عند سواحلها فلا تتطول أعناقهم إلى وراءها.

أما بلاد العرب والعراق وإيران فطبيعي أن يكون المسلمون المرجع

الأساسي في دراسة وصفها الجغرافي والعمراني والاجتماعي، إلى غير ذلك مما لم يصل إليه الغربيون قبل العصور الحديثة.

***

وحسبنا لتبيان فضل الرحالة المسلمين أن ينتهى بنا المطاف إلى أن دراستهم على نحو وافٍ دقيق أمر لابد منه لكل بحث في تاريخ التجارة أو النظام السياسي أو التاريخ الاجتماعي في الشعوب الإسلامية والأمم التى اتصلت بها؛ فإن ما كتبه الرحالة المسلمون من وصافين وجغرافيين كنز لا ينضب معينه، يضم الوثائق العظيمة الشأن في تاريخ الإنسانية. وفي استطاعة الباحث أن يستخرج منها شتى الحقائق ومختلف ضروب المعرفة، مطمئنًا إلى نتائج بحثه، إذا أقبل على دراسة هذه الوثائق ببصيرة نافذة وبشيء من الحذر الذى يتطلبه النقد العلمى عند معالجة النصوص في العصور الوسطى غربية كانت أو شرقية.

***

وتمتاز قصص الرحلات الإسلامية عامة بظهور شخصيات الرحالة فيها، فإن أكثرهم لا يقفون عند وصف مراحل أسفارهم وصفًا عامًا، بل يعنون بتقييد الظواهر الاجتماعية غير المألوفة في أقاليمهم. ثم إنهم يحرصون على لقاء أعلام البلاد التى يجتازونها من علماء وأدباء ورؤساء إلى جنب تعرفهم إلى طبقات الشعب المختلفة.

***

وقد كتب المستشرق الروسى فلاديمير مينورسكى V. Minorsky أن جغرافى العرب ملأوا الفراغ وسدوا الفجوة الزمنية بين عهد بطليموس العالم

اليوناني وعهد ماركوبولو العالم البندقى، وأن أخبار رحالة العرب وقصصهم أكثر تنوعًا وأشد حيوية وقوة مما نجده مسطورًا في كتب علماء اليونان وجداولهم وأن علمهم الذى ضمنوه كتبهم يمتاز بأنه أعظم اختيارا ونقدًا وأكثر في التفاصيل مما ورد في كتابات الرحالة البندقى العظيم ماركوبولو.

***

وكان ما كتبه الرحالة المسلمون عن البحار مصدرًا لقصص البحرية العربية. وهي - على قلة عددها - من أبدع القصص البحرية في آداب العالم على الإطلاق[١]. وحسبنا أن نشير هنا إلى قصة السندباد البحرى وقصة عبد الله البرى؛ فالثابت أن كثيرًا من وقائع القصص البحرية منقول من كتب الرحلات وكتب العجائب[٢]. بل رأينا أن كتب الرحلات كانت مصدرا الرحلات كانت مصدرا لكثير من الجغرافيين. ومن ذلك أيضا أن ابن الفقيه نقل في كتابه «مختصر البلدان» أجزاء كبيرة من رحلة سليمان السيرافي.

وفضلا عن ذلك كله فإن بعض الرحالة والملاحين المسلمين كان لهم شأن عظيم في مساعدة أعلام الرحالة الغربيين في مجاهل إفريقية والمحيط الهندي في نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة[٣].

(١) راجع كتاب «حديث السندباد القديم» للدكتور حسين فوزى ص١٨١ وما بعدها.

(٢) راجع كتاب حديث السندباد القديم ص١٩٢-٣٥٦.

(٣) انظر Ch. de la Ronciere: La Decouverte de L' Afrique au Moyen Age ج٢ ص٥ و٨٧ .

# مراجع


- ابن بطوطة: تحفة النظار في عجائب الأمصار، ط. باريس والقاهرة.
- ابن جبير: الرحلة إلى المشرق، ط. ليدن ولندن والقاهرة.
- ابن حوقل: المسالك والممالك. ليدن ١٨٧٣
- ابن خرداذبة: كتاب المسالك والمماليك. ليدن ١٨٨٩
- أبو زيد السيرافي: ذيل لرحلة التاجر سليمان. نشره رينو. باريس ١٨٤٥
- الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (مختصر طبع روما ١٥٩٢)
- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس. عن «نزهة المشتاق»، ط. دوزي ودي خوي. ليدن ١٨٦٦
- أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار. نشره فيليب حتى، جامعة برنستون ١٩٣٠ الاصطخري (أبو إسحاق الكرخي الفارسي): مسالك الممالك. ليدن ١٨٧٠ .
- انستاس ماري الكرملي (الأب): عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب (مقال في العدد الثاني في المجلد ١٠٦ من مجلة المقتطف. فبراير سنة ١٩٤٥)
- البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد): الآثار الباقية من القرون الخالية. لندن ١٨٧٩

- تحقيق ما للهند مقالة مقبولة في العقل أو مرذولة. نشره ساخاو. لندن ١٨٨٧ .
- حسين فوزي (الدكتور): حديث السندباد القديم. القاهرة ١٩٤٣
- الدمشقي (شمس الدين أبو عبد الله الصوفي): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. سنت بطر سبرج ١٨٨٦
- سليمان (التاجر): سلسلة التواريخ. نشره لانجلس Langles سنة ١٨١١ ونشره رينو Reinaud مع ترجمة فرنسية في باريس سنة ١٨٤٥
- زكي محمد حسن (الدكتور): الصين وفنون الإسلام. الفاخرة ١٩٤١
- كنوز الفاطميين. القاهرة ١٩٣٧
- الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي. القاهرة ١٩٣٩
- التصوير في الإسلام. القاهرة ١٩٣٦
- عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، ط. أوروبا والقاهرة.
- عبد الحميد العبادي: حديث الفتية المغررين من أهل لشبونة (مقال في العدد ١٣٦ من مجلة الثقافة بالقاهرة، ٥-٨ - ١٩٤١)
- عبد الوهاب عزام (الدكتور): البلغار المسلمون (مقلان في العددين ٢٦١و ٢٦٢ من مجلة الثقافة، ٢٨ - ١٢ -١٩٤٣و ٤- ١ -١٩٤٤)
- القزويني (زكريا محمد بن محمود): آثار البلاد وأخبار العباد. جوتنجن ١٨٤٨

- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. جوتنجن ١٨٤٩
- محمد مصطفي زيادة (الدكـتور): رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة (محاضرتان ألقـيتا بدار مكتب التبادل الثقـافي للمغرب بمصر - ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة (١٩٣٩)
- المسـعـودي (أبو الحـسن على بن الحـسين بن على): مـروج الذهب ومعادن الجوهر، ط. باريس والقاهرة
- التنبيه والاشراف، ط. ليدن والقاهرة
- نقولا زيادة: رواد الشرق العربي. القاهرة ١٩٤٣

D'Avezac, Armand : Les îles fantastiques de l'Océan Occidental au moyen âge, Paris 1845.

Beazley, C.R. : The Dawn of Modern Geography, 3 vols. (vol. 1, London 1897)

Benjamin (of Tudela) ; The Travels of Rabbi Benjamin ben Jonas of Tudela, through Europe, Asia and Africa, from Spain to China. London 1764

Bretschneider, E : On the Knowledge possessed by the Ancient Chinese of the Arabs and Arabian Colonies and other Western Countries mentioned in Chinese Books. London 1871

Brunschwig R.: Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord. Paris 1940

Casanova, Paul : Notes sur les voyages de Sindbad le Marin. le Caire 1922 (Extrait du Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, t. xx)

Della Vida, L. : Une nouvelle source pour l'histoire de l'Afrique du Nord (Hesperis, t. XIX)
— Il regno di Granata nel 1465—66 nei ricordi di un viaggiatore egiziano (al-Andalus, 1933)

Ferrand, G. : Voyage du Marchand Arabe Sulayman en Inde et en Chine rédigé en 851, suivi de remarques par Abu Zayd Hassan vers 916. Trad. G. Ferrand. Paris 1922.

Relations des Voyages et texte géographiques Arabes, persans et turcs relatifs à l'Extrême-Orient du VIIIe au XVIIIes. Paris 1913—1914

Fraehn, Ch. M. ; Ibn Foszlan's und anderer Araber Berichte über die Russen älterer Zeit und ihre Nachbarn. St. Petersburg 1823

Gibb, H.A.R. : Ibn Battuta, Travels in Asia and Africa (Translated and selected, with an introduction and notes, by Gibb, London 1929);

Goeje, J : La légende de saint Brandan, tirée des Actes du 8e Congrès International des Orientalistes, tenu en 1889 à Stockholm et a Christiania, Leyde 1890

Heyd, W : Histoire du commerce du Levant au moyen âge. Leipzig et Paris 1885 - 6

Hirth, F. and Rockhill, W.W. : Chau Ju-kua : His Work on the Chinese and Arab Trade in the XII^e and XIII^e centuries entitled Chu-fan-chi, trans. from the Chinese and annotated. St. Petersburg. 1911

G. Jacob : Studien in Arabischen Geographen. Berlin 1891 - ?

Jaubert, P.A. : Géographie d'Edrisi, traduite et accompagnée de notes, tome V et VI du Recueil de Voyages et de Mémoires publié par la Societé de Géogrphie de Paris 1836 - 40

Kammerer, A : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité. Le Caire 1929 at 1935

Marco Polo : The Book of Ser Marco Polo, the Venetian. Translated and edited by Sir H. Yule. London 1903

Nasir — i — Khosrau : Sefer Nameh, éd. Chefer. Paris 1881

Reinaud, J.T. : Mémoire géographique, historique et scietifique sur l'Inde, antérieurement au milieu du XI^e siècle de l'ère chretienne d'après les écrivains arabes, persans et chinois. Paris 1849.

Renaudot, E. : Ancient Accounts of India and China by two Mahomedan Mediaeval Travellers 1733, retranslated from the annotated French translation (1718) of ths texts of Sulayman the Merchant (851 A.D.) and Abu Zayd Hassan of Siraf (912 A.D.)

De la Roncière, Charles : La Découverte de l'Afrique au Moyen Age. le Caire 1925

De Saint — Martin, Vivien : Histoire de la géographie. Paris 1873

Schloezer, K. von : Abu Dolef Misaris Ben Mohalhal (texte arabe et traduction latine, Berolini 1845)

de Vaux, Carra : Les Penseurs de l'Islam (t. II, Paris 1921)

Youssef Kamal, Prince : Monumenta Géographicae Africae et Aegypti (tome III, époque arabe)